UNIVERSAL
LIBRARY

OU_190899

UNIVERSAL
LIBRARY

رواية

الفقيد الموجود

منقولة عن جريدة الاحوال اليومية

من العدد ٥٥٠ الصادر في ٢٤ كانون الاول سنة ١٨٩٤

الى العدد ٦٠٣ الصادر في ٦ اذار سنة ١٨٩٥

وهي ملخصة من اللغة الفرنسية بقلم

امين افندي الحلبي

احد محرري الجريدة المذكورة

بمطبعة الفوائد لصاحبها خليل البدوي

صاحب جريدة الاحوال ببيروت سنة ١٨٩٥

حقوق الطبع محفوظة للمطبعة

الباب الاول

﴿ الفصل الاول ﴾

ضاقت فلما استمكنت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

اشتهر يوسف وحنة امرأته في قرية النيل بالورع والتقوى وشهد لهما بالاستقامة وطيب السيرة وكانا يزرعان ويفلحان ويعيشان بكدح الزند وكد اليد وكان الدهر قد اخنى على حال يوسف بكلكله فعوّج قناته وشيب مفرقه وسطا على امرأته حنة فوخط رأسها بالمشيب وانذرها بدنو الشيخوخة لكن لزوجين لم يزالا رغماً عن ذلك شديدي البنية صحيحي العافية وكانا كثيراً ما يندبان نكد طالعهما اذ لم يرزقهما الله ولداً تقرّ به عيونهما . ففي ذات سحر ذهبت حنة الى البيعة لتصلي الفجر فاقيت على بابها طفلاً يستهل فالتقطته ليكون لها ابناً ونظرت الى وجهه فآنست منهُ جمالاً وتوسمت فيهِ خيراً فذهبت به الى زوجها والجذل يلمع في عينيها فاستبشر زوجها وقال لا بد ان يكون هذا الطفل ابن وجيه من علية القوم لان مخايل الشرف الاثيل والنسب الاصيل تلوح على محياه الجميل فافتحي تلك الخرق الملفوفة عليه لعلك تهتدين الى نسبه فحلت حنة رباط الطفل وبعلت تفحص الخرق فوجدت مكتوباً على احداها اسم جرجس فبحثت في غيرها لعلها تقف على اثر فضاع سعيها سدى فقالت لدعره اذن جرجس ونتخذه ابناً لنا واقامت حنة تحنو على جرجس حنوّ الام وهي فرحة به فرح قيس بليلاه وقرينها يوسف مشاركها في الجذل حتى مضى عليهما شيء من الدهر فدب جرجس ودرج وترعرع وبلغ من العمر عشر سنين فمرّ ذات يوم قائد يدعى ناجياً في قرية النيل ولما كان يعرف يوسف في بعض الاسفار من عهد بعيد نزل عليه ضيفاً فاكرم هذا وفادته ورحب به جداً وبعد ان تبودلت بين الضيف والمضيف تحايا الاشواق والترحيب اتى القائد على ذكر جرجس قال لما زرتك في خطرتي الماضية يايوسف كان جرجس رضيعاً يدرج وقد اشتقت اليه والله لان قلبي تعلق بجمالهِ فاين هو الان فديتك

قال يوسف استصحبتهُ حنة الى الحقل وستعود به عما قليل

وبينا هو يقول ذلك اذ دخلت حنة ومعها جرجس فبهر القائد ناجٍ من الجمال الذي وسم بهِ جرجس واجتذبه اليهِ وضمه وجعل يداعبهُ ويطرح عليهِ المسائل المتنوعة ليستطلع طلع ذكائه فالفاه على جانب عظيم من توقد النيرة وشدة العارضة وكان في ما سألهُ : اي مهنة تروقك في الدنيا

ــ مهنة الجندي الذي يحمي ذمار الوطن ويهرق دمهُ في سبيله وهو لعمري افضل شهيد واسعد مريد

فسر القائد ناجٍ من فصاحة الولد وبلاغته وشجاعته على صغر في سنهِ وحداثة في خبرته فضمهُ وقال لهُ عافاك المولى فهل تود لو تكون جندياً

ــ اي والله

ــ لم تزل الان رطب العود غض الشباب غير قوي على الانخراط في سلك الجند لكنك اذا بلغت اشدك تيسر لك ذلك

ــ روحي فداء الوطن

ودرجت الايام على هذا الحديث وحالت الاحوال وتوفي يوسف وحنة وظل جرجس وحيداً وكان اذ ذاك قد شب وبلغ اشده فاقام حينا في قرية النيل وهو في غم على وفاة من كان لهُ ابًا واماً وكان ينهض سحر كل صباح فيقصد مسهما ويصلي عليه طويلًا ويستدر لهما سجال الرضوان ومغفرة العزيز الرحمن ذاكراً ما عاياه من النعب في تربيته وما بذلا من الجهد في تثقيفهِ

وانه لعائد ذات صباح من ضريح والديهِ اذ لاقى القائد ناجياً فصافحهُ ملياً واطلعهُ على عوادي الدهر التي خطفت والديه من الدار الفناء الى دار البقاء فعزاه القائد وتوجع لمصابه ثم قال لهُ جرجس لم انسَ ما وعدتني به يا ناجٍ يوم زرتني وكان والداي في قيد الحياة

ــ تعني انضمامك في سلك الجندية

ــ اي والله فاني سئمت الحياة في هذه القرية ولاسيما انها تذكرني كل يوم بمن عز على قلبي ودرج تحت الثرى وقد طمحت نفسي الى التسلي بالرياضة فهل لك ان تستصحبني لنذهب الى الفلا ونروح النفس حيناً ثم ننتظم في سلك الجند

ــ كما تشاء

واقام القائد ناجٍ وجرجس في قرية النيل حيناً ريثما باع جرجس العقار الذي خلفهُ لهُ يوسف وحنة القرويان وذهب الاثنان يطويان الفلا ويجوبان القرى حتى ادى بهما المسير في ليلة حالكة الظلام مكفهرة الاديم الى تل انيق يدعى تل القمر فقال القائد ناجٍ لرفيقهِ جرجس

ــ هيا بنا الى تل القمر فاني اظن هذه الليلة حبلى بالعواصف والزعازع فاذا اوينا اليه كان ذلك خيراً لنا واولى ولا سيما ان حبيباً صاحب هذا الفندق صديقي الصدوق من امد بعيد

فاذعن جرجس وطرق باب النزل ففتحت الباب امرأة نصف طلقة الحيا بسامة الثغر فلما رأت القائد ناجياً صاحت

ــ اهلاً وسهلاً بناجٍ لقد هجرتنا عافاك الله هجراً غير جميل

فاجاب ناجٍ وهو ضاحك لم اهجركم ياسعدى ولكن رامت بي عوادي الزمن فشغلتني حيناً من الدهر في بلاد قاصية اما الان وقد ابت الى الاوطان فتيسر لي ان زوركما ورفيقي هذا وهو يدعى جرجس

ــ اهلاً بضيفين اكرمين

ثم دخل ناجٍ وجرجس وكان الحديث بينهما وبين حبيب صاحب الفندق غزير النوادر حارّ البوادر ولما افتقر بهما الجلوس بادر حبيب وهيأ لضيفيهِ سفرة مدام عامرة زاهرة فجلسا اليها وجالسهما حبيب فقال ناج اتحفنا ياحبيب بما لديك فاني اعهدك روية ظريفاً وكان هذا قد شرب قدحاً فمد يده الى ناج وقال والله لقد دب دبيب الخمرة الى موقع الاسرار واعبث حمياها بعقلي فاحدثت فيهِ خماراً شوشني فاشفع فديتك كاسي بثانية وداوني باللتي كانت هي الداء

فشفع لهُ ناجٍ القدح الاول بثان وعزز بثالث فارتوى حبيب بعض الارتواء وقال

(حدثني هي بن بي وهو اقرب الناس اليَّ واصدق رجل في الحي قال كنت مستشاراً لزعيم من زعماء القبائل وكان قد حدث بينه وبين احداها بعض القلاقل فاوعز الي ان اقصدها وازيل الجفاء واوثق الولاء وابرم اواخي الاخاء فامتثلت امره في الحال وهيأت الزاد وشددت الرحال واستصحبت نفراً من دواهي الرجال وانبرينا نضرب اكباد الجمال ونضرب في المفاوز والرمال حتى انتهينا الى القبيلة فاتخذنا خيمة زعيمها محط الاثقال والرحال فرحب بنا ونحر الجزور واضرم النار واترع القدور ومد سفرة المدام واكثر الالوان والخمور وكان من عوائد تلك القبيلة المرعية ان الجالس على المائدة لا بد لهُ من شرب رطل في قدح دفعة واحدة فدار

ساقي برطل في قدح على كل من الحضور فاستصعبوه وقالوا والله ان ذلك امر عسير لكن ضرورات احكاماً على العالمين فجروا مجرى العادة وشربوا كارهين اما انا فكنت اكرع الراح كرع ء فلا يبل مني غليلاً ولا يروي ظمأ فلما وصل الساقي الي خلعت مداس السفر ووضعته ن يدي وكان يسع سبعة ارطال فصببت فيه رطل الساقي وقمت الى الدن فاتيت به من الغار وصببت نهُ في المداس حتى اترع الى الاصبار والقوم كلهم شخوص ينظرون فرفعت المداس وقلت نخبكم اشرب يها الاكرمون وكرعت المداس فلم ابقِ فيه قطرة وجلست حيناً واجلت في الجماعة نظرة قالوا والله ان هذا الرجل رئيس الاشقياء المصاليت وزعيم الابالسة العفاريت فان كان د شرب سبعة ارطال من الخمر دفعة واحدة فهو لا ريب آسكانا على هذه المائدة فالنجاة لنجاة ان كنا لا نبغي الممات وقاموا من ساعتهم مولولين وفروا مهرولين)

فلما انتهى حبيب من مقامته المداسية الخمرية الى هذا الحد قهقه ناج وجرجس وسعدى حتى استلقوا على الظهور وقال ناج لحبيب قاتلك الله ما اعبك بالعقول فهاك قدحاً جزاء مقامتك فكرعه حبيب وهو يردد

خلِ الزمان اذا تعاسر او نجح واشك الهموم الى المدامة والقدح

ثم دار الحديث والحديث ذو شجون على سكان قرية المنتزه التي تبعد ميلاً عن تزل القمر وعن مديرها الجديد فقال ناج لحبيب بلغني ان مدير قرية المنتزه قد عزل وان قد اقيم خلفاً له امير يدعى راغباً فما قولك فيه

فاجاب حبيب ان هذا المدير الجديد غارق في بحار السياسة وهو لا يزور قصره في قرية المنتزه الا لماماً ومن الاخبار التي استرقتها انهُ لا يميل الى قرينته سلمى وانهُ ميال الى امرأة تدعى غادرة وقد اقامها في القصر مع زوجه فاصبحت ضرة لها تعارضها في كل الامور وتسومها خسفاً وهواناً وفي قصر المنتزه درة يتيمة تجلب الهوى من حيث ادري ولا ادري الا وهي ليلى حفيدة الاميرة سلمى فانها والله ظرف الظرف واية الجمال والكمال وفيها يصح قول من قال فاجاد

انسيةٌ لو رأتها الشمس ما طلعت من بعد رؤيتها يوماً على احدِ

وتعشى ناج وجرجس تلك الليلة وباتا في فندق القمر وفي خاطرهما ذكر ليلى التي وصفها لهما حبيب فهب جرجس في الصباح وقال لناج لو القينا عصا التسيار في هذا النزل حيناً من

الزمن نروض فيهِ النفس والجسم

ــ اني على ما تشاء وفي جوار هذا النزل غابة فسيحة الارجاء غزيرة الصيد فاذا عاد على ترويح النفس اليوم بالصيد والقنص فما قولك وهل لك ان ترافقني

ــ في نيتي ان اخطر خطرة الى قصر المنتزه ترويضاً للروح

فتهقه القائد ناج وقال اقسم ان ذكر ليلى علق قلبك ولكن تذكر قول الشاعر

فيادارها بالخيف ان مزارها قريب ولكن دون ذلك اهوال

ــ لا باس فاني اروح النفس كيفما دار الامر ولما ازف رأد الضحى كان ناج قد صار الى قاب الغاب يطرد طيور الفلا . اما جرجس فانه خرج منذ السحر وقصد قصر المنتزه بعد ان استعلم حبيباً صاحب الفندق عن موقعه وما زال يسير حتى بلغ القصر فاخذ يتمشى ذهاباً واياباً وعيونه محدقة به الى ان مضت ساعتان رآهما جرجس دهرين فعمل صبره وجاس على رابية يخاطب نفسه تروحاً لها وتمضية للزمن وانه لعلى هاتهِ الحال اذ فتحت شرفة القصر وبرزت اليها فتاة كأن الرحمن صاغ جسمها من جوهر وشعرها من عنبر وفمها من كوثر وتلتها امرأة نصف وسمت بطابع الوقار والكمال ومسحت بمسحة الهيبة والجمال فجلست وجعلت الفتاة تتمشى ذهاباً واياباً وتترنح ذات اليمين وذات الشمال فبهر جرجس وقال لا غروان الاولى هي ليلى والثانية سلمى ولقد صدق وامق حبيب فيما نطق فانها آية الحسن وربة الجمال وبيضة الخدر وطفلة الدلال وظلت الفتاة تتمشى على الشرفة وجرجس محدق بها شاخص البصر وهو يردد

وتميس بين مطيب ومعنبر وممسك ومزعفر ومصندل

هيفاء ان قام الشباب لها انهضي قالت روادفها اقعدي وتمهلي

الى ان انقضت ساعة خالها جرجس دقيقة فعادت ليلى وسلمى الى القصر واغلق باب الشرفة فظلت بقعها خاويا فحزن جرجس حيناً ثم تعزى بقول الشاعر :

وللهو آونة تمر كانها قبل تزودها حبيب راحل

وما زال جالساً على رابيته وعقله يغوص بحار الافكار ويجوب بيد الامال وهو ينتظر عودة الفتاة الى الشرفة ليتمتع بجمالها فخاب سعيه ولم يرها وفيما هو جالس يفكر اذ بصر باحد خدم القصر فقصده وبتد معه اطراف الحديث واستطاعه من حيث لم يشعر طلع الاميرة سلمى

وحفيدتها ليلى وسلمى سيسهم ... فعلم انهما يركبان عصارى كل يوم العجلة ويقصدان الغاب قصد ترويح الخاطر وترويض الجسم فقال في نفسهِ والله لاذهبن ثمت واراهما وقام من ساعته وقصد الغاب وهو هائم على وجههِ لا يرى ولا يسمع الا ليلى حتى وصل الغاب فبحث عن رفيقه ناجٍ فلم يفز بهِ فجلس الى دكة يسرح جياد البصر والفكر ولم تمضِ عليهِ ساعة من الزمن حتى استشرف من بعيد عجلة طائرة تنهب الارض نهباً ثم احدق بخيلها فرآها قد قطعت الاعنة وجمحت بالعجلة جموحاً هائلاً فذهبت بين الصخور والوعور وهي تنقلب تارة الى اليمين وطوراً الى الشمال وتلتطم بالصخور المتراكمة وتصطدم بالجلاميد العظيمة فتدوي وتتكسر اما الحوذي فسقط من شدة الاهتزاز وشج رأسهُ شجة استنزفت دمهُ فزادت الخيل جموحاً وانقضت كالسهم المرسل في وجهة هاوية مستكنة بين الجبال فلم يكن الا كنيغة الطائر حتى هب جرجس وجعل يعدو عدواً حثيثاً ليوقف العجلة فدنت العجلة من الهاوية وصارت منها على قيد غلوة وكان جرجس لم يزل منحدراً من الهضبة اليها. فلما رأى ان الحين قد فات وان سعيهُ خائب استل غدارة مسدسة الطلقات من جيبهِ وتحفز ورمى بنفسهِ من الهضبة باقل من لمح البصر فصار على شفا الهاوية حذاء العجلة واطلق الرصاص على خيل العجلة فاصاب احدهما في دماغهِ فوقع على الفور يختبط بدمائهِ ووقفت العجلة بغتة بعدان كادت تتدهور في الهاوية لكن جرجس وقع في القفزة التي قفزها على صخرة حادة رضت ساقهُ وجرحتها فلم يعبأ بها بل قام ودمهُ سائل ودار حول الهاوية وجاء العجلة من الجهة المحاذية وفتح بابها فرأى امرأتين ملقاتين قد اغمي عليهما وبدت على وجههما علائم الموت ...

ولم تكن المرأتان سوى الاميرة سلمى وحفيدتها ليلى وهاك سبب المصاب الذي طرأ عليهما . لقد فهم القارىء مما روى حبيب في نزل القمر ان الامير راغباً كان يميل الى امرأة تدعى غادرة وانهُ اقامها في قصره ضرة لامرأتهِ الاميرة سلمى وكانت غادرة عيبة العيب وعاء اللؤم قد جبلت على الغدر وطويت على المكر والضر وكثيراً ما اضمرت للاميرة سلمى شراً ونصبت لها الحبائل قصد ان توقعها فيها وتخلفها لدى الامير راغب ولما اخفق سعيها في ما سلف عمدت الى حيلة جديدة فوشت سائس الخيل واوعزت اليه ان يربط بالعجلة في ذلك النهار حصانين في غاية الجموح والشراسة وان يجز الاعنة في منتصفهما بحيث يتقطعان عند الشد

واستكتمتهُ السرّ فاذعن السائس لامرها وفعل كما علمتهُ وركبت الاميرة سلمى وحفيدتها ليلى في العجلة واستلم الحوذي الاعنة فلما سار بعض السير اخذت الخيل في الجموح وكانت غادرة قد ركبت حصانا مطهماً واخذت تتبع العجلة من وراء وراء لتشاهد بعينها عاقبة اذاها فجعلت تصيح بالحوذي ان اوقف العجلة لئلا يطرأ عليها طارئ، فزادت الخيل جموحاً وزاد الحوذي في شد الاعنة حتى انقطعت فركبت الخيل هواها وطمحت في شعاب الجبال فالتطمت العجلة بجلمود صخر فوقع الحوذي وشدخ رأسهُ فظل في مكانه يئن ثم غاب عن الشعور وغابت العجلة وهي تدوي دوي الرعود بين الوعور اما الاميرة سلمى فاستفاضت في الاستغاثة بادئ بدء خوفاً على حياتها وحياة حفيدتها ولكنها لما رأت الحوذي قد قتل وشاهدت تلك الهاوية التي جمحت الخيل في وجهتها ورأت ليلى قد اصفارّت واتكأت الى المسند كمن اغمي عليهِ سلمت نفسها لمن بيده ارواح العباد واتكأت ايضاً وغابت عن الشعور

ثم بادر جرجس كما روينا ورأى سلمى وليلى على هذه الحال فخفق قلبهُ واضطرب وبحث عن وسيلة لانعاشهما فلم ير ماءً فانحدر الى اسفل الهضبة يرتاد ماء فلم يعثر عليهِ الا بعد اللتيا والتي ولكنهُ حار في اي وعاء ينقلهُ فتناول قبعتهُ وافعمها وارتقى الى مكان العجلة واخذ ينضح وجه سلمى وليلى الى ان افاقتا ففتحت سلمى عينيها وصاحت رب اين انا ما جرى لي ثم تذكرت ما جرى لها فقالت سبحانك رب لقد نجيتني من هلاك مبين وانقذتني من مخالب الموت الذريع فاليك شكراً جزيلاً واشتركت ليلى مع خالتها في شكر الله وتسبيحهِ والتفتت الى جرجس فاجالت فيهِ جواد البصر فالفتهُ وسيم المحيا جميل الطلعة لطيف الخلق فمال قلبها الى حبه فقالت لخالتها حنانيك ايتها الخالة الحبيبة هذا هو مخلصنا ومنقذنا بعد الله فمالك لا تشكرينه فمدت سلمى يدها الى جرجس وكانت قد استعادت جميع قواها العقلية وصافحتهُ وقالت لئن قصر في شكرك لساني فلم يقصر فيهِ جناني والله يعلم اني لن انسى صنيعك الى الابد وكيف انساه وقد اعدت اليَّ والى حفيدتي الحياة من بعد الله فلو وهبتك مال الدنيا باسرها لما وفيت في جزائك ايها الشهم الهمام

فاجاب جرجس بلهجة شريفة لم اصنع سيدتي سوى ما فرضتهُ عليَّ الانسانية فما لي من ثم فضل يذكر

وفي هذه الاثناء اقبلت غادرة على حصانها وعلائم العجب والكدر في وجهها وذلك لانها لما رأت العجلة قد طارت بين الجبال والحوذي قد قتل ايقنت بهلاك سلمى وليلى فاترع قلبها سروراً وبرقت اسرتها ابتهاجاً وحبوراً وجعلت تمشي الخيزلى وتتأثر العجلة حتى تصل اليها وترى ضرتيها في اضاوية منتولتين ولكن ساء ما توهمت وابت مساعي المفسدين الا ان تحبط فان الله لم يأمر بهلاك البريئتين بل سخر جرجس في انقاذهما ولم تزل غادرة تسير على جوادها حتى استشرفت العجلة واقفة ورجل امامها فاخذها العجب العجاب واسرعت في السير وتراءت ورأت سلمى وليلى صاحيتين سليمتين نجا حادثان جرجس فتظاهرت بالكدر والاسف وقالت ويلاه وا اسفاه كادت مراراتي تنفطر لما رأيت ان الخيل جمحت بالعجلة فجعلت اعدو الهيذبى لادركها ولكن العثور حالت دون جدي والان احمد الله على نجاتكما ولكن قصا عليَّ فديتكما كيف نجوتما

فقالت سلمى نحن الان اقتنا من سباتنا وهذا الشاب هو الذي نجانا فهو ادرى منا

فحولت غادرة انظارها وصوبتها الى جرجس فآنست منهُ نور اللطف والرقة والدماثة فسألت قلبها اليه رغماً عن نفورها منه لكونه عمل على احباط مساعيها واستطاعته طلع المسألة وتفصيلها فصها الشاب بايجاز ثم قال والان يجدر بنا ان ننتقل سيداتي الى مكان معمور

فاجابت غادرة نعم ولكن هل يوجد ههنا مكان معمور

— لا اقرب من نزل القمر فلنبادر اليه

— وهل تستطيع الاميرة سلمى وليلى من المشي

فاجابت سلمى وليلى نعم نمشي فنلين اعصابنا ونروض جسمنا

ونزلتا واستندت سلمى الى ذراع جرجس ومشت ليلى الى جانبها وظلت غادرة راكبة ترافقها وفيما هم سائرون اذ بصر جرجس بدم فقال وي ما هذا الدم الجاري فقالت الاميرة ويلاه اظن ان هذا دم الحوذي الذي وقع وشج رأسهُ لما كانت العجلة طائرة بين الصخور فاستوقف جرجس رفيقتيه وتأثر البعض ة الى ان اهتدى الى الحوذي فالفاه على اخر رمق فحملهُ على عاتقه وجاء به ورافق سلمى وليلى وغادرة وهن يرثين لحاله حتى وصل الجميع الى نزل القمر فبادر حبيب وهو مضطرب واستطلع طلعة المسألة فأنبأه بها جرجس بوجه الاختصار واوصاه بان يهيء اريكتين لسلمى

وجرجس لا يفتر عن خدمة الاميرة سلمى وحفيدتها الى ان ازف المساء فقالت الاميرة لقد استرحنا وانجلى عنا العناء فيجدر بنا ان نعود الى القصر

اما الحوذي فانهُ افاق هنيهة بعد ان بذلت لهُ المنعشات وفتح عينيهِ وهو يحشرج وقال ياويلة السائس من الله فخار حباب واستبدى جرجس فجعلا يستطلعانه وهو يتلعثم ويحشرج الى ان فهما منهُ ان السائس الذي اسرج الخيل قد جزّ الاعنة بحيث تنقطع عند الشد وان وراء هذه الفعلة ما وراءها من الدسائس فعن لحبيب فوراً ان غادرة هاتجة هذه الدسيسة وناسجة هذه الحيلة فبلغ رأيه جرجس فصمت هذا وهو ينكت الارض وقال الله ادرى بمكنونات الضمائر فالينا عن هذا الامر الان ولنسعف هذا المسكين فما اتم قولهُ حتى زهقت روح الحوذي المسكين وهو يختبط بدمائهِ ويقول ويل لغادرة . . .

وعاد جرجس بعد ذلك الى غرفة الاميرة سلمى فكلفتهُ بان يجد لها عجلة تنقلها مع حفيدتها الى القصر فاذعن جرجس وتأهب للخروج في طلب العجلة فسمع طقطقة على باب النزل وصوتاً يصيح افتح لنا ياحبيب فقالت سلمى هذا صوت زوجي الامير راغب واطلت من النافذة فرأتهُ هو بعينهِ فتوقف جرجس عن الذهاب ريثما يدخل الامير

وكان الامير راغب كما فهم القارىء من حديث حبيب في نزل القمر يقضي السواد الاعظم من ايامه في باريس حيث ينتاب اندية القصف واللهو وصروح الفرح والصفو بين الغواني الشاديات والمطربات الراقصات وكان لا يزور قصره الا الماماً كانه اتبع المثل السائر زر غباً تجد حباً ولكن ساء ما توهم فانهُ لم يكن ليجد حباً لا من قرينته الاميرة سلمى ولا من غادرة اما الاولى فلانهُ اقام لها ضرة بازائها تمسي وتصبح وهي كالقذى في عينها واما الثانية فلانها طمعت في الامارة وفي المال فلم يكن حبها لهُ الا رياء ومينا

فلما طرق الامير باب النزل وصاح بحبيب كما روينا بادر هذا ورحب بهِ ايما ترحيب فدهش لما رأى في النزل قرينتهُ وحفيدتهُ وغادرة فسأل الاولى عن السبب فقصتهُ عليهِ بالتفصيل حتى اذا انتهت حمدت الله واختتمت بهذا البيت :

ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكنت اظنها لا تفرج

﴿ الفصل الثاني ﴾

ان الاخاءي وان لانت ملامسها عند التقلب في انيابها العطب

بعد ان قضت الاميرة سلمى على زوجها ما طرأ عليها من الخاطر وما ابداه جرجس من الاقدام والشهامة في انقاذها من انياب الموت الزؤام نزعت خاتماً من بنان حفيدتها ليلى واهدته الى جرجس قائلة لو شئت ان اقوم بما يفرضهُ عليَّ صنيعك الجميل لاهديت اليك الدنيا وما فيها ولكن الهدايا على مقدار مهديها كما قال المثل فرجائي لديك ان تقبل هذا الخاتم عربوناً للوداد وعنواناً للولاء ودلالة على شكري لك فنظر الامير راغب الى جرجس نظرة المتأمل فتوسم فيهِ مخايل الشهامة والنبل وطيب الاصل لكنهُ ازدرى بلباسه العادي وقال لقرينته هذا الخاتم لا يساوي الا بضعة دريهمات فكيف جازيتِ به صنيعه

فاجاب جرجس على الفور وقد خدش هذا الكلام وجنة عواطفهِ اللطيفة : سيدي اذا كان الخاتم لا يساوي الا بضعة دريهمات فالرصاصة التي اطلقتها انا على الجواد الجامح لا تساوي الا بضعة فلوس

فاعجب الامير راغب من بداهة جرجس وذلاقة لسانه واستدل من ثم على شرف عواطفه وطيب جرثومتهِ وفهم المغزى واطرق ساعة ثم قال كفاني بهذا الجواب دلالة على نبلك وفضلك ايها الشهم ولذلك عزمت على استصحابك الى قصري واستشارتك في اموري ثم حانت من الامير التفاتة الى لباس جرجس فرآه ملطخاً بالدم فسألهُ السبب فاخبره بان الدم سال عليهِ من الحوذي الذي حملهُ ميتاً وان الرضة التي اصابتهُ بساقهِ عند انحداره من الهضبة لتوقيف العجلة قد نضحت ايضاً بالدماء فزاد قلب الامير رقة عليهِ وامر للحال بان يؤتى لجرجس بخلعة جديدة وان تنزع عنه ثيابهُ الوسخة ويضمد جرحهُ ويكسى الخلعة واستنسب ان يقضي الجميع ليلتهم في نزل القمر تعزيزاً لاستراحتهم وان يدفن الحوذي القتيل المسكين بما يليق من الاكرام على نفقاتهِ فتمت الامور على ما رام وانقضت الليلة في نزل القمر وفي صباح اليوم التالي قصد الجميع قرية المنتزه ونزلوا في القصر

وكان لراغب مدير قوة المنتزه حامية تتألف من خمسين جندياً وقد عهد بقيادة هذه

الحامية والسيطرة عليها الى رجل يدعى عامرًا وكان هذا الرجل أمعة يفعل كما توعز اليهِ غادرة ويرخي ذيول النقاب على خفاياها وهي تقابلهُ بالمثل فتعضده لدى الامير راغب وتصوب اراءه وتستر معايبهُ ويجمل للقول ان عامرًا وغادرة جريا في سيرتهما مجرى المثل العربي السائر اقدح لي اضئ لك

ومن جملة الخلل الذي كانت غادرة تسكت عنهُ لعامر انهُ كثيرًا ما كان يستورد المال من ابواب الخداع في غياب الامير راغب وذلك ان هذا كان يؤدي لعامر كل سنة كمًا وافرًا من المال ليصرف في سبيل الحامية التي تتألف من خمسين جنديًا ولما كان راغب لا يزور قصره الا لمامًا كان عامر في اثناء غيابه يصرف جنود الحامية ولا يبقي في القصر الا نفرًا يسيرًا يصرف في سبيله مالاً يسيرًا ويبقى الباقي منهُ في حرز حريز ومعقل عزيز (اي في جيبهِ) واذا بشر المبشر بقدوم الامير الى القصر ذهب عامر ضاربًا في القرى المجاورة واتى بسرية من الجنود استكمالاً لعدد الحامية المعين واستقبالاً لسيده راغب وكان قد فعل على هذا المنوال لدى قدوم سيده في المرة الاخيرة فلما جاء الامير باهلهِ وحاشيتهِ اصطفت لهُ جنود الحامية وفي مقدمتهم عامر وهلل الجميع احتفاء واقيمت في القصر مأدبة فاخرة ساد فيها اللهو والفرح واستتبت اسباب الجذل والمرح وقام الامير راغب في اثنائها وخطب في الحضور خطبة حسن وقعها في القلوب واعلن على رووس الاشهاد شهامة جرجس وفضله وتعيينه مستشارًا لهُ فقام جرجس واجاب الامير شاكرًا احسانه ومن لطائف الصدف ان عامرًا لما ذهب يسعى بجنود الحامية سيده مرَّ بالغاب المجاور فعثر على ناجٍ وهو يقنص فعرض عليه الانخراط في سلك الحامية بضعة ايام ريثما يعود الامير الى باريس فرضي ناج وولج القصر وانتظم في الحامية فلما تمت الحفلات وعادت المياه الى مجاريها في القصر تعارف جرجس وناج وشكرا المولى على الصدفة التي جمعت بينهما وصارا يقضيان سحابة نهارهما بالخدمة ويقصدان مساء نزل القمر ترويحًا للنفس يبثان الحان وحديث حبيب وبينا هما جالسان ذات ليلة في النزل اذ جاء اثنان من جنود الحامية ايضًا يدعى احدهما فارس والاخر حنا فجلسا واستدعيا سفرة مدام فاحضرت لهما فما زالا يكرعان الراح قدحًا بعد قدح وطاسًا بعد طاس حتى خيل لهما ان السماء اصبحت ارضًا والارض سماء فقام فارس وقد اعجبت برأسهِ بنت الدوالي فخيل لهُ ان الاساد بعض حاشيتهِ والملوك حاشيته وجعل يتخطى

ويتمطى في النزل ويشفن الحضور كأنهم بعض خدمه ويهذر بكلام اشبه بكلام المجانين فقهقه ناج وجرجس من حركات فارس وسكناته ولاسيما ان هذا كان صعلوكاً اعمش اخفش يضحك منظره الثكلى ويبكي الوليد في حالة الصحو فكيف به وهو سكران طافح فلما رأى ناجيًا وجرجس يضحكان ويستلقيان على الظهور افعم غيظًا وغضبًا فانتفخ يافوخهُ وازبأرَّ لبده وتطاول وجههُ وتعالى رأسهُ وحملقت عينهُ الرمداء وصار منظره من غرائب المضحكات فزاد ناج في القهقهة فدنا فارس منهُ ورفسهُ برجلهِ وقال لامك الهبل ولفيك الجندل ويلك يا اذل من نقد كيف تضحك مني وانا البطل الصنديد والفارس الذي قدّ جسمهُ من حديد الاتدري اني اذا بطشت بك باصبعي جعلتك كالهباء المنثور وارسلتك الى دار الفناء تزور القبور

وكان ناج مع شدة باسهِ احلم من معن ابن زائدة فلما رأى من فارس ما رأى لم يجبهُ بنت شفة بل زاد في القهقهة حتى سال لعابه فظن فارس ان ناجيًا لم يجبهُ عن خور في القوة او فشل في النفس فحرق الارّم وطفح اناء غضبه وبلغ حزامهُ الطبيين ففتح فاه وقذف سيلًا من اللعنات مدرارًا وادنى وجههُ من وجه ناج حتى لصق انفهُ بانفه وعيناه تتقدان كالجمر وصاح ويلك ياكلع حذار من بطشي وفتكي والا فلا تلم الا نفسك وكان جميع الحضور يعلمون شوكة ناج ومقدرتهُ فطفقوا يضحكون مما هدده به فارس الصعلوك فزاد ناج في السخرية من فارس وجعل يحكي حركاتهِ وسكناتهِ على نمط تضحك لهُ ثغور الايامى والثكالى واليتامى فهجم فارس على ناج كأنه يريد ان يبيده فاملص ناج برشاقة وفرّ من يديه اغراء لهُ بزيادة الحنق فلحق بهِ فارس وهو يخبط خبط عشواء في الليلة الليلاء ويحماق بعينيه ويضرب الجدران بجنبيه فدار ناج حول منضدة هناك فتأثره فارس لكنهُ لم يرَ في طريقه كلب النزل الذي كان رابضًا تحت المنضدة فداس على قائمتهِ فهب الكلب اليهِ وعضهُ في رجله فصاح من الوجع وتعرقل به فوقع الى الارض وجعل يصيء فقهقه الجميع قهقهة دوت لها انحاء الحانة من اقطارها الاربعة فزاد حنق فارس وانساء وجعهُ وقام وقال لناج ويلك ياندل كفاك ذلاً وضعة وعارًا انك هربت من وجهي فان كنت رجلًا فاثبت امامي واجترىء على مقارعتي ودونك والنزال يا ابن الاندال فلما رأى ناج ان لهجة فارس اصبحت سبابًا وشتائم وقف وقال لهُ بثغر بسام حيّ هلا النزال فاستل

فارس سيفاً كان الى جنبه واستل ناج سيفهُ وطفق الاثنان يتبارزان وكان ناج اثناء النضال يدفع ضربات مبارزه كأنه يلاعب طفلاً رضيعاً وهذا لا يزيد الا حنقاً وجهداً حتى مضت ساعة من الزمن فانهكت قوى فارس وتفصدت جبهتهُ من العرق وناج ضحاك الفم وضاح الجبين لا يعبأ به ولا يكترث لسطوات ضرباته فعمد فارس الى الحيلة اخر الامر واضمر الشر فخالف سنن المبارزة وعاجل ناجياً بضربة كادت تكون القاضية لولا ان اتقاها هذا بمزيد الجهد والرشاقة فاستاء جميع الحضور من مراوغة فارس وصاحوا بهِ ويلك يا ندل اترك الى المراوغة واخذ الغضب من ناج مأخذه فعاجل فارساً بضربة على سيفهِ فانكسر وافلت من يد فارس ووقع على الارض فقبض ناج بذراع شديدة الاسر على فارس وشالهُ عن الارض وهو يقول روحك بين يديّ يا لئيم فلو شئت قتلتك ولكني اعفو عنك واعتاض عن قتلك بقذفك من هذه النافذة وكان للحانة نافذة تطل على مستنقع تراكمت فيهِ الاوحال وروث الدواب فرمى ناج فارساً من النافذة وهو يقول استحم يا بنيّ لعلك تفيق من سكرتك ... فوقع فارس في الاوحال وجعل يعوي عواء الكلاب التي قرصتها صبارة البرد النافح

وفي اليوم الثاني اصطف جنود الحامية باسرهم عند رأد الضحى امام عامر فاستعرضهم وكان فارس قد عاد الى القصر بعد ان تخلص من مستنقع الاوحال وقدم القصر وهو منكس الرأس ذليل العين كسير القاب وفي قابه من ناج مراجل الحقد والضغينة فقص ناج على رصفائهِ قصة الحمام الذي استحم به فارس فقهقهوا ضحكاً فزادت سخيمة فارس وقال والله لارين ناجياً نجوم الجوّ تجري بالظهر ولاجعلنهُ عبرة لمن اعتبر بين العالمين

وتوالت على هذا الحادث بضعة ايام تمكن جرجس في خلالها من الانفراد بالاميرة ليلى حفيدة الاميرة سلمى ومغازلتها في النجوى فراقتهُ وراقها لاول وهلة :

وما الحب الا نظرة ثم ينثني اخو الوجد منها في لظى وجهنم

ونفث الحب فيهما حمياه فدب دبيبها الى موضع الاسرار واستولى على جميع جوارحهما فسرى مسرى الدم في العروق وابرما اسباب الهوى حتى اصبحت كالعروة الوثقى وكل ذلك في ظل من الخفاء ظليل وحصن من السر منيع

اما ناج فتيسر لهُ في هذه الاثناء رؤية غادرة فدهش لاول وهلة وقال والله كأن فاتنة

التي رأيتها في البندقية ولهوت بها حيناً من الدهر تقمصت بهذه المرأة ثم لعنت يتهلم لخبائها من حاشية القصر مستطلعاً طلع اصلها وفصلها ومنبت شعبتها حتى تجلت لهُ شعبة الحقيقة فعلم انها هي هي فاتنة بعينها ومينها فقال لا غرو من ثم انها بدلت اسمها اخفاء لاصلها ولكن والله لاكشفن النقاب عن وجهها ولاجعلن مستورها منشوراً وخافيها مشهوراً وفكر في حيلة لنوال الارب فلم يرَ احسن من التظاهر بالسكر وخلط الجد بالمزح حتى يحض لهُ الصريح عن الرغوة فشرب كاس خمر وصعد الى ممشى القصر الذي تمر بهِ غادرة وجعل يتخطر ذهاباً وايابًا ويلوح برأسه و يديهِ ذات اليمين وذات الشمال وينشد اغاني مخلوطة الالحان منهوكة الالفاظ لا يغنيها الا من طفح سكرًا فما عتمت غادرة ان مرت من ورائهِ فلم يلتفت اليها ولم يتأدب فصاحت بهِ ويلك يامعتوه اتفعل ما تفعل بحضرتي فلم يكترث ناج لها بل زاد في الطنبور نغمة ورفع عقيرته بحيث دوت لها اقطار الممشى فاستأنفت غادرة التهديد والوعيد فالتفت ناج وضحك ضحكة البهاليل وقال هل راقكَ صوتي يابنيَّ فان شئت اسمعتك من نغمات الالحان ما ينسيك بلابل الروضة الغناء ويزري بمعبد وسلامة الزرقاء فاسمع وعِ

واستأنف الصياح بصوت اشبه بنباح الكلاب ومواء السنانير في شهر شباط فهجمت غادرة كاللبوة وامسكت بردنه من دبر واجتذبتهُ قائلة ان كنت مجنوناً يافتى فستؤدب اصرم تأديب افلا تعلم اني انا ربة هذا المنزل واني اذا شئت نكلت بك تنكيلًا فنظر ناج الى غادرة نظر العابث واعطافهُ تترنح سكرًا ثم احدق بها نظره بغتة وهدأ جأشهُ وزاد في تسكين بصره وجسمه الى حد اصبح معهُ شاخصاً جامدًا كأنهُ شخص ثابت مقدود من الحجر فقالت غادرة مالك ويلك الم تفهم ما اقول لك تأدب وأب الى الرصانة والا اوقعت بك واذقتك من القصاص الوانًا

فزاد بصر ناج شخوصاً ثم فرك عينيهِ بيديه وقال : عجبًا عجبًا والدهر ابو العجب عمي مساء يافاتنة والله اني اليك في اشواق احر نار الجحيم ابردها ولكن قولي لي بحياتك من جاء بك الى هذا القصر فتجاهلت غادرة وقالت لاغرو انك معتوه قد اختلط عليك الليل بالتراب فانت تخلط في كلامك وترسلهُ على عواهنه فاعلم اني ربة هذا القصر وتأدب لئلا تسوء عقبى امرك

فترنح ناج اعطافًا وقبض بيده على غادرة وقال عجبًا :

يا اهيل الود انى تنكرو في كهلًا بعد عرفاني فتي

ثم احدق ناج بيدها فرأى في بنانها خاتم ذهب صغيراً كان قد اهداه اليها في البندقية فقال : وي وي لقد حدسحض الحق وزهق الباطل وقبض على بنانها وقال ممن اخذت هذا الخاتم فاحمار وجه غادرة خجلاً وامتعضت لهذه الحجة الدامغة ولكنها اخفت الكمد واظهرت الجلد فقالت :

دع عنك هذه الاقاويل الفاسدة واغرب عني او اجعلك عبرة للمعتبرين

فولاها ناج ظهره وقال اني ذاهب الى الامير راغب وساسرد عليهِ جميع قصتك فان اوقع بي فلست لاكترث لا بالسجن ولا بالقصاص

فحارت غادرة في امرها وقالت هذا نشوان لا يتدبر عواقب الامور فان قص على راغب قصتي فلربما كنت من الهالكين فالتدارك اولى فاستوقفت ناجياً في طريقه واخذت تطيب نفسهُ وتستعطفهُ حتى اتفقا على ان يصمت هو عنها وان تعضده هي لدى الامير راغب

ونزل ناج من المشى الى مخيم الجنود وهو يضحك في كمه فقص على جرجس قصته مع غادرة من اولها الى اخرها فطلب جرجس اليهِ ان يستطلع غادرة طلع ميلها اليهِ اي ان يعلم اذا كانت تحب جرجس فلقيها في اليوم الثالث واخذ يخلط لها الجد بالمزاح حتى بدا لهُ من وراء الحجاب ان غادرة تداهن الامير راغباً طمعاً في مالهِ وانها في حقيقة الامر تنفر منهُ وتميل الى جرجس ميلاً خفياً

ولما استراح الامير راغب من وعثاء السفر تبرَّجت غادرة وتزملت بابهى الحلل وجاءت غرفته تتخطر كالغصن المياد وانفردت بهِ ساعة من الزمن ثم خرجت وثغرها بسام وظل راغب في غرفتهِ كالح الوجه كاسف البال مقطب الحاجب وكان محور الحديث الذي دار بين غادرة وراغب على انجاز الوعد الذي وعدها بهِ الا وهو هجر امرأته والاقتران بغادرة وترقيتها الى رتبة الامارة وقصت عليهِ اثناء الحديث الحيلة التي نصبت اشراكها لسلمى وليلى لتوقعهما بها فاستاء الامير بادىء ذي بدء لكنهُ هدىء روعاً اخر الامر واوجس خوفاً من فقد مودة غادرة فطيب خاطرها ووعدها بان يوفر لسلمى اسباب النكد حتى تمل ويتفاقم مرضها فتموت ويرثها ويتزوج بغادرة فيعيشا ناعمي البال

وقام بعد ذلك فدخل الى غرفة امرأتهِ فرحبت به على سبيل عادتها فجلس وهو يتبسم

تودداً فقال انت تعلمين ياسلمى كما انبأتك غيرمرة اني متشوف للمعالي والمناصب الخطيرة زيادة في رفع مقامك ومقامي ولذلك اقضي السواد الاعظم من آونتي في العاصمة بين ارباب السياسة واولي الحل والعقد من اصحاب الرئاسة وقد اتخت لديهم رحال الامال وجعلت مشورتهم دستور الاعمال واني وطيد الامل بالترقي عما قليل الى منصب ليس وراءه مطمح لطامع او غاية لمتشوف لكني لم اقضِ ولن اقضي مآربي الا بالدراهم الوافرة حيث لها في هذه الدنيا الشيل والحط ولذلك يتضح لك جلياً اني انفقت مالاً جزيلاً حتى نفد وعائي واصبحت راحتي انقى من الصفا ومعلوم لديك ان الامور بخواتمها واني اذا لم اتابع السعي في نوال اربي والاعتلاء الى ذلك المنصب الخطير راحت انصابي في ما سلف ادراج الرياح وكنت كالظامىء الذي قطع المراحل الشاسعة طمعاً في الماء فلما صار من المورد العذب على قيد غلوة عافهُ وعاد على الاعقاب ضنناً ببضع خطوات فما قولك ايتها القرينة الصالحة وكانت الاميرة سلمى واقعة الطائر رصينة الاخلاق بعيدة غور الحلم تسمع لزوجها دعواه وتصبر على مضض البلوى فتطوي على القذى ولا ترفع صوتها بالشكوى مع علمها بما هو عليه من الاجحاف بحقوقها والعبث بحرمتها ومصلحتها وقد طالما سمعت لهُ مثل هذه الاحاديث ومدتهُ بالمال ظناً منها بانهُ انما يقول الصدق وينطق بالحق ولكنها بلغت معهُ درجة من الحلم والصبر لم يبقَ لها معها جلد على الزيادة ولاسيما انها كانت تدري فساد زعمه وتعلم حق العلم انهُ يضع المال في غير موضعه وينفقهُ على ما لا طائل تحتهُ فطفح اناء صبرها وبلغ السيل الزبى فاجابت اقول اني منذ اقترنت بك ما برحت ابذل في سبيلك مالي ومقاري ولا ارى منك ما يجدر بالزوج الصادق وعلى كل فلست لاؤاخذك ولكني لا ارى سبيلاً الى انفاق مالي سدى من الان فصاعداً

واخذ الزوجان يتجادلان في الكلام ويتحاوران حتى ملت الاميرة سلمى فقالت ومجمل القول ماذا تريد مني

— اريد ان تفوضيني ببيع اراضيك في قرية النيل

فغضبت سلمى وقالت هذا مستحيل لانهاهي مسقط رأسي ومنبت شعبتي فلن استطيع الى بيعها سبيلاً

فابرق الامير راغب وارعد فلم تكترث لهُ الاميرة سلمى فخرج من عندها وهو حابط الامال

خائب المطامع عظيم الغيظ والحنق وقصد غرفة غادرة فقص عليها ما جرى وداولها بالامر ففكرت فيه وقالت اولى طريقة تلوح لي في ابادة سلمى ان تبقى وحدها في القصر ولكن انى لنا بذلك وحفيدتها تلازمها ملازمة الخيال فمن لنا بابعاد حفيدتها عنها حينًا من الزمن ريثما نتمكن من الايقاع بها

— قد عنَّ لي رأي ربما كان صائبًا وهو ان لزوجي سلمى ابنة عم عجوزًا في احدى القرى المجاورة فلو ارسلنا حفيدة زوجي ليلى الى تلك العجوز . . .

— هذا راي لا يخلو من الاصابة ولكن البراعة في ارسالها من حيث لا تدري بغايتنا وانجع وسيلة لديَّ ان تذهب انت الى تلك العجوز وتستكتبها بحذاقة كتاب دعوة الى ليلى

فاجاب الامير راغب اصبت في رأيك المرمى وها انا ذاهب من ساعتي وقام من ساعته وسافر لاتمام نيات غادرة اما سلمى فظلت بعدان خرج زوجها من غرفتها سيئة البال كاسفة الخاطر كسيرة القلب تندب سوء حظها وتشكو نكد طالعها حتى اذا ازدحمت الهموم عليها وضاقت بها الدنيا استدعت حفيدتها ليلى وجعلت تبث لها شكواها وتستشيرها فاشارت عليها الفتاة ان تستجير بالامير سالم وهو الوالي الذي يناط بحق السيطرة على زوجها وان تعرض عليه الامر وترفع اليه شكواها

فاستحسنت سلمى مشورة ليلى وشرعت من فورها تحرر كتابًا طويلًا الى الامير سالم وكانت فحوى الكتاب الاستجارة من ظلم راغب بالوالي سالم والرجاء منهُ بان يزورها كي تطلعهُ على المظالم التي تكابدها ولما انتهت اطلعت ليلى عليه وقالت نحن في حاجة الان الى رجل امين ينقل هذا الكتاب الى الامير سالم فقالت ليلى ما امين مثل جرجس فاجابت سلمى صدقت يابنيتي فاني لما رأيت هذا الشاب تحركت في اقصى فؤادي عاطفة غريبة لم تتحرك قط لرؤية شاب مثله وقد اولد فيَّ ثقة تامة وحبًا شديدًا

فاغتنمت ليلى الفرصة وقصت على سلمى ما دار بينهما من احاديث الوداد وما دب في قلبيهما من حميا الهوى فاستحسنت سلمى ذلك لكنها حذرت ليلى من البوح بالسر ثم كلفتها بان تستدعي جرجس سرًا ففعلت ليلى فجاء جرجس وتأدب ومثل بين يدي الاميرة سلمى فقالت لهُ : يلوح لي انك من اسرة شريفة فمن ابوك ومن اي البلاد انت

فاجاب جرجس لم يسعدني الطالع بمعرفة ابي وامي الحقيقيين ولكني عرفت اللذين ربياني وهما يوسف وحنة من قرية النيل وقد التقطاني من على باب الكنيسة هنالك

فتأملت سلمى بجرجس وهو يتكلم وقالت اه لو بقي طفلي في قيد الحياة لكان اليوم اشبه بهذا الشاب واستطرد جرجس قصة حياته الى ان بلغ قصر الامير راغب فاطلعتهُ سلمى على المهمة التي استدعتهُ من اجلها واستكتمتهُ السر فاذعن مطيعاً وسافر من فوره واعدًا بان يسير سيرًا حثيثًا ويعود في اليوم التالي حتى اذا عاد الامير راغب لا يطلع على غيابه

عدنا الى غادرة وما كادت لناج من المكايد فان هذه المرأة الخاتلة لاينت ناجيًا بادى ء الامر مضطرة ولكنها اضمرت لهُ في قلبهـا من الشر اضغاثًا وقالت في نفسها لا بد ان اقذف بهِ من حالق حتى يتعلم ان كيد النساء لا يُغلب وقامت من ساعتها وقصدت القائد عامرًا وانفردت بهِ وكان هذا كما اسلفنا القول يخدم غايات غادرة خوفًا من ان تكشف النقاب عن معائبهِ فقالت لهُ اني طالبة اليك خدمة فهل تخيب املي بك

ــ معاذ الله ايتها « الاميرة المصونة والدرة المكنونة » فقد علم اهل الخافقين اني اطوع لك من بنانك وان روحي فداءك

ــ عشت وعشت ايها القائد الامين فاني ساضاعف الجهد في اعلاء شأنك لدى الامير راغب واجعل لك في قلبه مكانة عليـا من الاعتبار

ــ مري تطـاعي فان اقتضى الامر اراقة دمي فاليكهِ

ــ لا عدمتك من نصـير مجير اما مطلبي فطفيف وهو اني اقصـد التخلص من ناج الذي انخرط في سلك الجندية تحت امرتك

ــ هذا امرٌ يسير

ــ ولكني اريد ان تجري في ابادته مجرى الحذر بحيث تلقي عبء التبعة على سواك

ــ لا تخشي ولا انت تحزنين فان لناج عدوين بين الجنود فسأكل الامر اليهما

ــ حسنًا تفعل وهاك مئـة ريال اجرتهما اما اجرتك فسأفيكها من بعد

ــ جل الاجر الذي ابتغاه رضاكِ عليَّ

ــ عافاك الله ياعامر

وذهب عامر من ثم فاجتمع بفارس وحنا فاسرّ اليهما الامر واستكتمهما اياه ونقد كل واحد عشرة ريالات ووعد كليهما بعشرة اخرى بعد اتمام الامر ووضع الستين الباقية في جيبه « الحوز الحريز » وقال في نفسه والله ان قتل الثلثة معاً فذلك خير وابقى لاني استبقي عشرين ريالاً واضمها الى ربحي في الحوز الحريز فاكون قد كسبت في هذه المسألة ثمانين ريالاً

ولما امسى المساء قصد ناج تزل القمر ترويحاً للنفس وتعليلاً للخاطر فتسلح كل من فارس وحنا وتعاهدا على ان يكمنا له وراء خمر في الطريق حتى اذا ما عاد عند منتصف الليل اطلقا عليه الرصاص وقتلاه شر قتلة وخرجا من قصر المنتزه بعد ساعة من خروج ناج وما زالا سائرين حتى وصلا الى حنية في طريق امامها جلمود من الصفا فاويا الى ما وراءه وكنا هنالك يتحادثان همساً

• اما ناج فانهُ بقي بتزل القمر حتى انتصف الليل وكان قد شرب بضع كؤوس من الخمر فدارت حمياها في رأسهِ واورثتهُ حماسة وشجاعة فقال لحبيب صاحب التزل : يحوك في صدري منذ بضعة ايام ان ابحث عن باب الى قصر المنتزه من جهة الخنادق لاني اجزم بوجود مولج سري فيها اليهِ لان الابنية القديمة كلها على هذا المنوال اذ ان الاقدمين كانوا يخشون حصار الاعادي فيبنون في الاسوار مخرجاً سرياً بحيث انهم اذا ضاقوا ذرعاً لجأوا اليهِ

فاجاب حبيب كلامك عن المولج لا يخلو من الصواب ولكني اشور عليك بان لا تعرض نفسك للبلاء في هذه الليلة العمياء فان في خنادق الاسوار من ركام الصخور وخبيث الوحوش والسوام والحشرات ما لا تأمن شرّه هذا فضلاً عن ان الظلام الحالك لا ييسر لك الاهتداء الى المولج فدع عنك ما نويت عليهِ الليلة واذهب الى فراشك

فعربد ناج وقال لحبيب الم يبن لك ان تعلم اني امرؤ اذا قلت امراً فلا بد لي من فعله

وما زال حبيب يصرف افكار ناج وهذا مصرّ حتى يئس حبيب من اقناعه وقال له اذن ان كان الامر لا بد منهُ فدعني ارافقك فتمنع ناج وقامت سعدى امرأة حبيب فمانعت زوجها ايضاً خوفاً عليه فبقي حبيب اذعاناً لامرأته وودعهما ناج وسار يخبط في الليل وهو نشوان ويملأ الفضاء باغانيهِ وحداته

وبعد مضي ساعة بلغ ناج اسوار القصر فانحط في الخنادق وهو يدمدم لوغورة المسالك وتشعب الشجون وكان في مسيره يخبط على غير هدى ويرفع عقيرته بالغناء تسلية للنفس ويلوح

بعصاه ذات اليمين وذات الشمال

قلنا ولو كان في مثل هاته الحال رجل غير ناج لذعر الى حد يخشى عليه معهُ فقد العقل وغياب الشعور لان جميع المرعبات المرهبات تجمعت في تلك الخنادق المهجورة فاصبحت مأوى وحوش الفلا وسوام الحيوان وهوامه فاذا مرّ فيها المارّ ولاسيما في الليالي الباردة سمع نباح الذئاب والضباع والدببة وصيح الافاعي والاحناش الى غير ذلك من الاصوات المنكرة التي تفعم القلب رعباً وترعد الفرائص التياعاً هذا فضلاً عما يقوم حولهُ من جبابرة الصخور وما يعترض سبيلهُ من مهاوي الحفر

اما ناج فلم يكُ ليعبأ بمثل هذه المخاوف لانهُ اعتاد على الاسفار واقتحام الاخطار وخوض معامع الوغى وقد زاد في شجاعته جسارة تلك الليلة اقداح الخمر التي كرعها عند حبيب في نزل القمر فما زال يهيم على وجهه حتى قرب في مسيره بين الخنادق وركام الصخور من الجادة فقال في نفسه تباً لحميا الخمر فقد ذهبت بي مذهب التيه وقصدت التوغل في الخنادق فوقعت في الضد

وعاد ناج على الاعقاب للتوغل في الخنادق كرة ثانية فسمع خفق نعال فظنهُ صوت وحش بري فلم يكترث لهُ لكنهُ استند الى صخرة امامهُ من باب الحذر . . .

ولم يكن خفق النعال ناتجاً الا عن فارس وحنا اللذين ضاقا ذرعاً عن الاضطبار فجعلا يجولان ذات اليمين وذات الشمال فسمعا صوت ناج فاستهديا به وقصدا قصده في الليل الحالك وكان الرجلان يمشيان مشية الخائف المذعور لان منظر الخنادق والاسوار والصخور واصوات وحوش الفلا راعتهما وكلما مشيا برهة وقفا يستهديان ويتنسمان صوت ناج وبينا هما خارجان من فوهة غار رأيا على بعد ثلاثة امتار شبحاً يتحرك بجوار صخرة فوقفا وهمس فارس لرفيقهِ اليس هذا ناجيًا

فاحدق حنا وقال يلوح لي انهُ هو بعينهِ وفي الحين نفسهُ كان ناج لاصقاً الى الصخرة بحيث اصبح جسمهُ وجسمها واحداً فقال فارس تباً للظلام فاني لا اميز صدره من عجزه ولكنا على كل حال مضطرون الى اطلاق الرصاص عليه لئلا يشعر بنا فيهلكنا لا محالة فليصوب كل منا غدارته الى المكان الذي يظنهُ الرأس او الصدر فلا بد ان يصيبهُ احدنا ان اخطأه الاخر ولنطلق

وما اتم فارس قولهُ حتى اطلقا هو وحنا دفعة واحدة فلم يعقب الاطلاق صوت بل ساد السكوت والسكون لان وحش الفلا ارتاع من الدوي فصمت

اما ناج فانه لم يصب بشيء لحسن طالعه وتوفيق المقادير وسبب ذلك انه كان للصخرة التي لصق بها قمة اشبهت راس الانسان وهي التي اطلق عليها الرصاص . فلما رأى ناج الامر على هذا المنوال صمت حذرًا وقال في نفسهِ ويوي من عساه يكون العدو فلنختبيء اولاً حتى اذا ما تبينا العدو نازلناه الى ساحة البراز وقفزفصار وراء الصخرة فلطيء وصمت اما فارس وحنا فانهما بعد دفع الرصاص رأيا ناجيًا يتحرك فلم يعلما ان كان سالمًا او مختبطًا بدمائهِ فوقفا هنيهة ثم دنوا قليلًا فتطلع ناج من وراء الخمر فرآهما اتيين فقال وي وي انهما اثنان عليَّ فضلًا عن ان معهما اسلحة نارية اما انا فلا املك الا هذا السيف القديم فما انا فاعل

وظل يفكر في حيلة تنجيه من الورطة وفارس وحنا واقفان من الصخرة مزجر الكلب ليعلما النتيجة وبعد ان شحذ ناج فكرتهُ خلع عنهُ عباءه وترع سيفهُ وادخل السيف في العباء ورفعهُ رويدًا رويدًا من وراء الصخرة وصاح صيحة شديدة فذعر فارس وحنا واطلقا على العباء ما بقي في غدارتيهما من الرصاص فاوقع ناج العباء الى جنبهِ ولمسه فرآه كالمصفاة ثقوبًا فقال وي وي كانت هذه الثقوب معدة لصدري فقال فارس لرفيقهِ لقد مات موتًا زؤامًا ذهب الى حيث القت رحلها ام قشعم فلا رحمهُ الله فما سمع ناج هذه الكلمات حتى هب هبوب الاسد من عرينه وهجم على فارس فصاح هذا مذعورًا رحماك رحماك فاجاب ناج دونك يا كلب الفلا وعاجلهُ بضربة على رأسه فالتقاها فارس بسيفهِ فعاجلهُ باخرى على كتفهِ فاصابتهُ وكسرتها وكان حنا في هذه الاثناء قد خاف على روحه فاخذ يحشو غدارتهُ بالرصاص فرآه ناج فخاف ان يغدره فترك فارسًا وهجم على حنا فضربهُ على يدهِ ضربة اوقعت منها الغدارة الى الارض وصاح به وهل انت تقصد قتلي ايضًا يانذل يالئيم ويلك الم تعلم اني قرن شديد المراس وان لحمي مر المذاق فوقع حنا على رجلي ناج وقال رحماك رحماك فاني مسخر مدفوع

— ومن دفعك الى هذا العمل الذميم

— القائد عامر وقد ادى لكل منا اجرته

فقال ناج وهو لا ريب مدفوع ايضًا من غادرة فاني بحول الله انجو من الكل واكيد العدى فخذ هذه الضربة واذهب بسلام وبادره بضربة في الرأس كانت القاضية فوقع حنا على الجدالة يخبط بدمائهِ وكل ذلك جرى باقل من لمح البصر اما فارس فان جرحهُ في كتفه جدلهُ

بادئ الامر لكن الفزع ازال الوجع

. فانتعش من سقطته وهب الى الغدارة التي وقعت من يد خنا على الارض فالتقطها وهجم على ناجٍ فالتفت اليه ناج باقل من لمح البصر وعاجله بضربة على رأسه شدختـه لكن فارساً كان قد دفع الغدارة فانطلقت الرصاصة واصابت كتف ناج في الدقيقة نفسها التي اصيب بها فارس بسيف ناج في راسه فوقع كلاهما المتضاربين يخبطان بدمائهما

اما ناجٍ فلما اصيب بالرصاصة صاح من كبد حرى ويلاه من غدر النساء هذا فعل غادرة التي لايتني اولاً ثم نصبت لي هذا الشرك فتباً لها من خائنة صدق عليها قول القائل

ان الافاعي وان لانت ملامسها عند التقلب في انيابها العطبُ

﴿ الباب الثاني ﴾

(الفصل الاول)

اخذوا الحبيب فياحشاي تقطعي اسفاً عليه ويا حشاشتي ذوبي

وتكاثر جريان الدم من كتف ناجٍ الى حدّ ذهب بجميع قواه فقال على الدنيا السلام ووقع على الارض خائرًا غائب الشعور . اما فارس فان الضربة التي عاجله بها ناجٍ على راسه طارت بعقله وبحسه فانطرح على الجدالة قبل انطراح ناجٍ فظنه هذا ميتاً

ومضت ساعة من الزمن وجثة المتقاتلين ثاوية على الارض لا تبدي حراكاً والليل قد قلب صدره الى العجز ووقف وقفة الوداع ولو نظرت الى ناجٍ وفارس في ذلك الحين لظننتهما ميتين والحال ان رسيس الحيوة لم يزل في قلبيهما اما ناجٍ فكان سباته اشد من سبات فارس لان جرحه الانجل صبّ دماً غزيرًا فافقده القوة واما هذا فانه لم يفقد دماً غزيرًا ولذلك عاد اليه بعد ساعة من صرعته رسيس من شعور فتنفس الصعداء وفتح عينيه وجمع افكاره الشتى فتذكر ما جرى له فصوب نظره للحال قبل ان يفتكر بجروحه واوجاعه الى قرنه ناجٍ فرآه طريحاً فبرقت اسرته فرحاً وشماتة . ثم قال ولكن هل مات حقاً او هو حيٌّ بعد حبذا لو جسست قلبه واجهزت عليه

وحاول النهوض فلم يستطع اليه سبيلاً فجر نفسه ووصل اليه لانهُ لم يكن بعيداً عنه فوضع يده على قلبه وانصت برهة ثم قال وافرحتاه لا نبض للبتة

ثم ثابر على وضع يده حيناً فصاح وي وي لم يزل حياً لان قلبهُ يخفق خفقاً خفيفاً ... فمن الواجب ان اجهز عليهِ حتى اشفي غليلي منهُ قبل موتي ولا اموت قبل ان اكون قد قتلته

فنظر يمنة ويسرة ليرى سلاحاً يقتلهُ بهِ فرأى جميع السلاح مبددة بعيدة عنه فوضع يده على حلقوم ناجٍ وقال في نفسهِ لعلي اخنقه فشدَّ فخانتهُ قواه وزاد وجعه من اجهاد النفس فقال ويلاه سيوف الاوجاع تقطع جسمي ولا غرو انني ميت بعد دقائق معدودة ولكنني لا اموت ما لم اقتل هذا الوغد اللئيم واجال النظر ثانية بجواره ليعثر على سلاح فلم يرَ الا سيف ناجٍ على بعد بضع خطوات

فنهض ليأتي به فخانتهُ قواه ووقع الى الارض فاستجمع قواه وجعل يجر نفسهُ رويداً رويداً حتى بلغ موضع السيف بشق النفس فالتقطهُ وبرق الفرح يلمع في عينيهِ رغماً عن اوجاعه الاليمة وعاد من ثم يجر نفسهُ انسلالاً حتى بلغ جسم ناج وكان هذا العمل قد استغرق ساعة من الزمن فدنا من صدر ناج وجثا على ركبتيه وصوب السيف الى موقع القلب من ناج ورفعهُ ليهوي بهِ بجميع قواه ويطعن عدوه الطعنة القاضية فرأى يداً قبضت بغتة على معصمه ودفعتهُ دفعة عنيفة فوقع منهُ السيف بعيداً وانطرح فارس الى الارض مدفوعاً

ولم يكن هذا المنقذ سوى حبيب صاحب نزل القمر واليك ما ساقهُ في تلك الساعة : بعد ان خرج ناج من عنده عمد الى فراشه فأرق ولم يكتحل جفنهُ بسهاد فقام واثار المصباح وجلس يتسلى ويدخن التبغ ويطل من نافذة النزل الى الطريق لعلهُ يرى شريد ليل او طريد برد فيبتغي في النزل مأوى من شرّ الغسق وكانت افكاره اوانئذٍ تحوم على ناج فيقول في نفسهِ ياله من مسكين يسير الان وحده على غير هدى ياليتني رافقتهُ انا في تلك المسالك الوعرة خوفاً من ان يطرأ عليهِ طارئ ولكن امرأتي ماستني ثم ضحك وقال والله لقد صدق العرب اذ وصفوا المرأة بالجبن والبخل والرجل بالكرم والشجاعة وانهُ لعلى هاتهِ الحال اذ بصر بفارس يركض فرسهُ حثيثاً الى تل القمر فنزل حبيب وفتح الباب واستقبلهُ فاذا هو رجل غريب لا يعرفهُ فرحب به وادخلهُ فرأى على محاياه علائم الاضطراب والوجل فاستطلعهُ الخبر فقال بينما كنت ماراً بجوار الاسوار التي قرب قصر المنتزه سمعت بدفعات نارية واصوات منكرة اشبهت بعزيف الجن فتحققت ثمت ان مرويات الناس عن الجن في تلك الاماكن كلها صادقة فركضت فرسي وقصدت

تزلك كي استريح وها انا منهك القوى

فقال حبيب وهل يريد سيدي طعاماً

ـ كلا عافاك الله لا ابتغي سوى فراش استريح عليه

فاعد لهُ حبيب غرفة للنوم وبعد هنيهة كان وفد الليل الغريب غائصاً في لجج الكرى يشخر في فراشهِ شخيراً تدوي لهُ جدران الغرفة . اما حبيب فانهُ بعد ايواء ضيفه جلس الى النافذة يفكر فقال في نفسه نست من العجائز اللائي يوقنَّ بقصص الجن والحن بل اوقن ان في خنادق الاسوار التي حكى عنها الضيف القادم مناوشة ولا بد ان يكون ناج هنالك ممرضاً للخطر فيجب عليَّ من ثم ان اقصد هاتيك الاسوار واسارع لنجدتهِ ان كان الخطر قد احاق بهِ

قال هذا ولبس للحال وتسلح وقصد الاسوار المذكورة فتحقق خوفهُ وفعل ما فعل كما سلف الكلام ولم يزل ناج غارقاً في سبات عميق فوقع عليه حبيب بعد ان دفع عنهُ فارساً وضمهُ وهو يقول ويلاه وامصيبتاه لقد جرح ناج صديقي الاعز . ناج ناج . . ما اصابك ياحبيبي

فلم يجب ناج بشيء بل ظل غارقاً في لجج السبات فاخرج حبيب من جيبهِ جوزة رائحة منعشة كان دائماً يستصحبها في صنيديق للتطبيب واحكم وضعها على انف ناج بضع دقائق فافاق هذا وهو لا يدري ما جرى بهِ ثم اجتهد في استجماع شتات عقله فتذكر الماضي وافهمهُ لحبيب بوجيز العبارة فلم يتمالك هذا عند سماعه من تناول السيف والاجهاز على فارس اللئيم جزاء نذالتهِ وطفق من ثم يسبر لناج جرحهُ بمسبر صغير اخرجه من صنيديق التطبيب ايضاً ويعالجه بالادوية الناجعة التي علمته الخبرة استعمالها حتى مضت ساعة اخرج لناج فيها الرصاصة من كتفه وضمد جرحه ولفه بالخرق والادوية وعرض عليه ان يذهب فيستأجر له عجلة تنقله الى النزل فأبى ناج وقال أفتاة انا كلا لن اركب العجلة بل امشي على رجليَّ والنزل ليس بعيداً فضلاً عن ان جرحي ليس بخطير واني انتشعت الان ونسيت اوجاعي وقام من ساعته وقصد نزل القمر مستنداً الى ذراع حبيب . فاعد له هذا عند الوصول فراشاً فتمدد ناج عليه ونام

عدنا نسوق الحديث الى غادرة وعامر فان هذا أخبر غادرة بما فعل ليلة ندب فارساً وحنا للمهمة التي فوضته بها سيدته فظلت هي تنتظر اياب المندوبين عند الصباح لتعلم عقبى الامر

وظل عامر ايضاً يتقلب على نار الغضا وشوك الاضطبار

فلما لاح ابن ذكاء قامت غادرة من فراشها ويممت غرفة عامر واستطاعته طلع الندوبين فقال لها انهما لم يعودا بعد فاضطربت حيناً واسترجعت سألت عنهما فاجيبت بمثل الجواب الاول فتمهلت ايضاً حتى سال لعاب الشمس وانتظم رأد الضحى فجاءت عامراً وقد فرغت كنانة صبرها فاوعزت اليه ان يركب بنفسه ويقصد مكمن المندوبين ليرى صيود المسألة فقال لها لا اعلم مكمنهما ولكني اذهب مع ذلك لاستطلاع خبرهما وركب من فوره وجعل يسير على الجادة الكبرى ويسأل الصادر والوارد فلا يقف للمندوبين على اثر وامسى المساء ولم يفز بشيء فعاد بخفي حنين

اما الاميرة سلمى فكانت في هذه الاثناء كاسفة البال قلقة البلبال جالسة على قتاد الصبر تنتظر عودة جرجس لتعلم ما آل ما قالهُ لهُ الامير سالم الوالي الاكبر وانها لجالسة على هذا المنوال تغوص لجج الافكار اذ طرق باب غرفتها ودخلت عليها وصيفة وقالت على الباب شيخ يطلب مقابلة سيدتي فهل تأذن لهُ بالدخول

فقالت الاميرة سلمى من عسى ان يكون هذا الشيخ

— لا علم لي يا سيدتي وجل ما قالهُ لي انهُ من قرية النيل وان لديهِ مهمة مُهمة يقصد اطلاعك عليها

— لا باس من دخوله حتى نرى ماذا يريد

وما مضت هنيهة حتى مثل بين يدي الاميرة سلمى شيخ هرم قد شابت لمتهُ وثقلت وطأته واعوجت قناتهُ وصار الموت منهُ على قاب قوسين او ادنى فلما رأتهُ الاميرة سلمى انتفضت اعضاؤها كما انتفض العصفور وقد بللهُ القطر واقشعر جلدها واحمار وجهها غضباً وصاحت اليك عني يارجيم اليك عني يامن اصاب كبدي بسهام من الارزاء مسمومة اليك عني يامن احرق حشاشتي وشق مرارتي وقتل اعز الناس اليَّ واحبهم لديَّ اغرب عني ولا ترني وجهك الممقوت فلقد كفى ما قد جرى « مذ جرى ما قد كفى من مقلتي » حزناً على من وددتهم انا وغيبتهم انت تحت الثرى

اما الشيخ الهرم فانهُ اغلق باب الغرفة بسرعة كي لا يسمع احد ما يدور بينهُ وبين سلمى من

الحديث واسرع الى الاميرة وخرّ راكعاً على قدميها وصاح ورأسهُ منكس وذراعاه مرفوعتان رحماكِ رحماكِ سيدتي على قدميك شيخ اثقلت ظهره السنون وصار اقرب الى الموت من حبل الوريد ولكنهُ لم يرَ بدًّا قبيل موته من استطار عفوك واستمداد رحمتك ولئن كان ذنبهُ عظيماً فان حلمك اعظم واوسع والعفو من شيم الكرام فلا تخيبي طالباً امّ حرمك من مكان سحيق واستجار بجمالك ولاذ بظل مراحمك

ــ لكلامك ايها الشيخ في صدري وقع شديد ولكن قلبي وجميع جوارحي تأبى الا ان تنفر منك نفورها من الشيطان الرجيم فما العمل عد من حيث اتيت واذهب بسلام لان نظري اليك ينكأ الجروح ويزيدني قروحاً الى قروح ويمزق احشائي بسيوف الذكرى فارحم فؤادي ولا تذكرني بما مرّت ايامهُ ومرت صروفهُ

ــ استحلفك بحرمة الدين والشرف المبين وبحق اعز الناس اليك ان تصغي لكلامي هنيهة من الزمن حتى ابسط لديك امرًا مهماً وافعلي بعد ذلك ما بدا لك واحتملي هذه الهنيهة في سبيل الله

ــ بما انك استحلفتني بالدين والشرف فقل ما بدا لك واوجز الخطاب يا ماهر

وكان هذا الشيخ المدعو ماهرًا فيما سلف من الايام اميناً للامير شديد ابي سلمى وكانت سلمى قد راقت اميرًا يدعى انيسًا وراقها هو بحيث اتفقا على الزواج فاستأذنا والدها شديدًا فلم يجب طلبهما لانهُ كان شرس الاخلاق طماعاً بالمال يقصد تزويجها برجل ذي ثروة واسعة وجاه عريض فالحت سلمى على ابيها ولم تزل تتزلف اليهِ حتى رضي فاقترنت بالامير انيس وظلا على هاتهِ الحال سنة واصبحت الاميرة سلمى حبلى . وكأن الوسواس الخناس في هذه الاثناء وسوس لشديد ابيها فاصبح من اشد الناس بغضاً لصهره انيس وبلغ البغض بهِ الى حد اوعز معهُ الى ماهر امينه بان يوقع بانيس فحاولهُ ماهر بادىء ذي بدء فاعاد عليهِ الامر ثانية وثالثة حتى اضطر الى طاعتهِ اذ انهُ اوعده بالقتل اذا لم يطع . فقال ماهر للاميرة سلمى ورأسهُ منكس لم يفتكِ ابتها السيدة ما كان عليهِ والدك الامير شديد من البغض لزوجك الامير انيس وما آل اليهِ اخر الامر من قصد الايقاع بهِ وبي ان لم انفذ مقاصده فاجبرت مضطرًّا الى اجراء مقاصده لانهُ اوعدني بالقتل ان لم اطعهُ فخشيت من بطشه لاني علمت كما علم الناس كلهم اجمعون شدة

بأسهِ وسطوتهِ وامتثلت امره وكان في ما امرني بهِ ان ادبر قتل الامير انيس زوجك وابنك الطفل الامير جرجس فسعيت في الامر الاول وارسلت من اورد انيساً موارد الردى لكني اشفقت على طفلك جرجس ذلك الغصن الرطيب فما زلت اسعى حتى اخذت الولد وطرحتهُ على باب كنيسة في قرية النيل وعدت الى الامير شديد وقلت لهُ اني قتلتهُ وتوالت الايام بعد ذلك والليالي وعلمتِ ما جرى بعد ذلك فلا حاجة الى التكرار ومجمل القول ان ابنك جرجس لم يقتل

فبهتت الاميرة سلمى عند سماعها هذا الكلام وشخصت ببصرها الى الشيخ وظنت انهُ يقول لها هذا الكلام تمويهاً وقالت ان كنت تقص عليَّ هذا القول لتغرني فاصفح عن ذنبك فاذهب بسلام ولا تزدني قرحاً الى قرح

ــ ان كنتِ في ريب مما اقول فاقسم لكِ بالله المتعال ان طفلك جرجس لم يقتل بل طرح على باب الكنيسة في قرية النيل وانا لفقتهُ بيدي في مجادٍ كتبت عليهِ «جرجس»

فتمثل لخاطر الاميرة سلمى على الفور صورة جرجس الذي اوفدتهُ برسالة الى الامير سالم وقالت لعلهُ هو ثم ارتدت على اعقابها وقالت كلا ان هذا الشيخ كاذب اتى يزيد في عذابي فالتفتت اليهِ وقالت استحلفك بالله ياماهر الا ماصدقتني وانبأتني بالحق الصراح

ــ اقسم لك ثانية بالله والشرف والدين والذمة ان ما اقولهُ لكَ حق صراح لا يشوبهُ كذب

فاستجمعت الاميرة سلمى افكارها وقالت في نفسها لا غرو ان جرجس هذا هو ولدي ومهجة كبدي فياالله من عجائب الدهر وغرائب الحوادث

ثم تمثلت شخصهُ فقالت اجل اجل هو هو بعينه لانهُ تمثال ابيهِ المرحوم انيس خُلقاً وخَلقاً ونطقاً فوافرحاه وواجذلاه لقيت من بعد سنين طوال من كان حشاشة كبدي

ثم انتبهت لماهر الشيخ الذي لم يزل راكعاً منكس الراس فبادرت وانهضتهُ واجلستهُ الى مقعد حذاءها وقالت : اعلم ايها الشيخ انك بشراك هذه احييت فؤاداً رميماً وكسبت اجراً عظيماً والقيت في قلبي جرثومة شكر ومنة لا تفنى الا مع الحياة فرجائي لديك ان تغض الطرف عما بدر مني في بدء زيارتك لانهُ صدر عن صدر محترق وفؤاد مفؤود

ــ كنت ايتها السيدة اتوقع اكثر من ذلك لما دهاك من المصائب

ــ لقد ازلت بشراك غمة تلك المصائب كلها وافعمت قلبي سروراً وابتهاجاً ولاسيما ان

ولدي في هذ القصر والي رأيتهُ ولم اعرفهُ.

قال ماهر وكيف ذلك فقصت الاميرة سلمى القصة عليهِ فابتهج لابتهاجها وقام مودعًا فبلعت عليهِ الحلي النفيسة وزودته بكيس اعجز من المال الوضاح وغادر القصر يشكر المولى المتعال ويعجب من حوادث الدهر

وظلت الاميرة سلمى ترقب بفارغ الصبر عودة ولدها جرجس وهي سكرى من الجذل ولما كان الجذل كالحزن من اشد الامور احتياجًا الى البث استدعت حفيدتها ليلى وقصت عليها القصة كلها فكان فرحها ضعف فرح سلمى وكانت اول عبارة قالتها لها اذن تحقق اقتراني به وافرحتاه فوعدتها الاميرة سلمى بذلك واستكتمتها السر

ولما خيم الغسق طلع عامر الى شرفة القصر يروح النفس فرأى عن بعد عبارًا كثيفًا وطلع من ورائهِ فارس ينهب الارض نهبًا فاستشرفهُ عامر واحدق بهِ فعلم انهُ جرجس فقال في نفسه من اين قادم جرجس ياترى والى اين ذهب

وتربص حتى دخل جرجس القصر فاعترضهُ في طريقهِ وطرح عليهِ السلام فاجابهُ جرجس باحسن منهُ فقال لهُ عامر اراك تاهث وتتفصد من العرق ولا غرو انك اجهدت نفسك ففي اي الحاجات ذهبت

ـ ذهبت في حاجة لي ضرورية

فقال عامر في نفسه لا يثق في هذا الخبيث وقد اغتنم فرصة غياب الامير راغب وقضى حاجة في نفسهِ ولكن لا حق لي عليهِ بعد كل ذلك في معارضتهِ فانهُ نائل من الحظوى والزلفى لدى الامير راغب ما يجعلني تحتهُ بدركات . لكن هذه المسألة جعلت تحوك في صدر عامر حتى صاح عن كتمانها ذرعًا فقصد غادرة واطلعها على الامر ففكرت فيه مليًا وقالت لعامر وهل لم يطلعك على ما صنع

ـ كلا

ـ كان من الواجب ان يستطلعهُ الخبر من حيث الملاطفة والداهية

ـ اما انا فلطفت لهُ في الكلام مالي اخباري

فقالت في نفسها هلا خلق هذا الرجل (تعني عامرًا) من طينة اهل السياسة ثم

استدركت فقالت على ان سذاجتهُ اولى لي لانيِ اديره كيفما شئت فهو اطوع لي من بناني لكن سفر جرجس ظل حائكاً في صدرها فقالت والله لا بد ان يكون وراء الاكمة ما وراءها وذهبت الى غرفتها فاستدعت احدى وصيفات القصر التي كانت توكلها في مساعيها الفاسدة واوصتها بان تترقب جرجس وتلازمهُ من حيث لا يدري ملازمة الخيال ورشتها ببضعة دريهمات ووعدتها بغيرها فذهبت الوصيفة تسعى في هاتهِ المهمة جهدها

اما جرجس فلما رأى ان عامرًا وغيره من الحاشية رأوه وتنبهت لهُ خواطرهم لم يقصد غرفة الاميرة سلمى بل ذهب الى غرفتهِ وترع عنهُ ثيابهُ وارتمى على السرير ليستريح ويدفع عنهُ وعثاء السفر وظنون اهل القصر وظل يرقب فرصة تمكنهُ من الانسلال الى غرفة سلمى واطلاعها على مآل ما قالهُ لهُ الامير سالم كما اوصتهُ هي قبل سفره فلم يفز بامنيتهِ لتكرار ذهاب الحاشية وايابهم وبينا هو ينتظر طرق باب القصر طرقًا دوت لهُ الجدران فتراكض الحشم وفتحوا الباب واذا الامير راغب قادم فاستقبلوه بما اعتادوا عليهِ من الاحتفاء وولج غرفتهُ ريثما يدل ثيابه وذهب بعد ذلك الى غرفة غادرة فأنبأها بان رحلتهُ تمت على غاية ما يرام وانهُ استكتب ابنة عم زوجه كتابًا تدعو فيهِ الاميرة ليلى اليها فاستحسنت غادرة صنعه وقالت اذهب حالاً وبلغ ليلى الكتاب حتى تسافر هذه المساء فقام من فوره ودخل على زوجه فرأى عندها حفيدتها ليلى فقال لامرأتهِ كنت عند ابنة عمك ترويضًا للنفس فرأيتها منحرفة المزاج وقد طلبت اليَّ ان تذهبي اليها مع ليلى لانها في منتهى الشوق اليكما ثم اردفت بقولها وان لم يمكن قدومهما معًا فلتأت ليلى اولاً ثم تليها سلمى بعد بضعة ايام وهاك الكتاب الذي حررته في هذا المعنى

قال هذا واخرج كتابًا ودفعهُ الى مخاطبتيهِ وخرج فقالت سلمى لحفيدتها انا لا اقدر ان اذهب الان لعدة اسباب واهمها اني انتظر بفارغ الصبر قدوم ابني جرجس لاعانقهُ واعلم جواب الامير سالم فاذهبي انت وحدك الان ريثما اكون قد فزت برؤية ابني فالحقك بعد بضعة ايام فرضيت ليلى بذلك وجعلت تهيئ امتعتها وتعبي هميان السفر حتى اذا ما لاح الفجر اعدت لها المركبة لتسافر عليها

ولم تبرح الاميرة سلمى في الليل الذي تحيت آيتهُ غائصة في تيار من الهواجس هائجة تفكر تارة في ابنها جرجس فيذوب فؤادها شوقًا اليهِ وتفكر طورًا في زوجها وغادرة فينفر

ولدي في هذ القصر والي رأيتهُ ولم اعرفهُ.

قال ماهر وكيف ذلك فقصت الاميرة سلمى القصة عليهِ فابتهج لابتهاجها وقام مودعًا فبلغت عليهِ الخلع النفيسة وزودته بكيس اعجز من المال الوضاح وغادر القصر يشكر المولى المتعال ويعجب من حوادث الدهر

وظلت الاميرة سلمى ترقب بفارغ الصبر عودة ولدها جرجس وهي سكرى من الجذل ولما كان الجذل كالحزن من اشد الامور احتياجًا الى البث استدعت حفيدتها ليلى وقصت عليها القصة كلها فكان فرحها ضعف فرح سلمى وكانت اول عبارة قالتها لها اذن تحقق اقتراني بهِ وافرحتاه فوعدتها الاميرة سلمى بذلك واستكتمتها السر

ولما خيم الغسق طلع عامر الى شرفة القصر يروح النفس ورأى عن بعد غبارًا كثيفًا وطلع من ورائهِ فارس ينهب الارض نهبًا فاستشرفهُ عامر واحدق بهِ فعلم انهُ جرجس فقال في نفسه من اين قادم جرجس ياترى والى اين ذهب

وتربص حتى دخل جرجس القصر فاعترضهُ في طريقهِ وطرح عليهِ السلام فاجابهُ جرجس باحسن منهُ فقال لهُ عامر اراك تلهث وتتفصد عن العرق ولا غرو انك اجهدت نفسك ففي اي الحاجات ذهب

— ذهبت في حاجة لي ضرورية

فقال عامر في نفسه لا يثق فيَّ هذا الخبيث وقد اغتنم فرصة غياب الامير راعب وقضى حاجة في نفسهِ ولكن لا حق لي عليهِ بعد كل ذلك في معارضتهِ فانهُ نائل من الحظوى والزلفى لدى الامير راعب ما يجعلني تحتهُ بدركات . لكن هذه المسألة جعلت تحوك في صدر عامر حتى ضاق عن كتمانها ذرعًا فقصد غادرة واطلعها على الامر فضحكت فيه مليًا وقالت لعامر وهل لم طلعك على ما صنع

— كلا

— كان من الواجب ان يستطلعك الخبر من حيث الملاطفة والداهية

— انا لا الطف لهُ في الكلام فالبي اخباري

فقالت في نفسها هلا خلق هذا الرجل (تعني عامرًا) من طينة اهل السياسة ثم

استدركت فقالت على ان سذاجتهُ اولى لي لاني اديره كيفما شئت فهو اطوع لي من بناني لكن سفر جرجس ظل حائكاً في صدرها فقالت والله لا بد ان يكون وراء الاكمة ما وراءها وذهبت الى غرفتها فاستدعت احدى وصيفات القصر التي كانت توجها في مساعيها الفاسدة واوصتها بان تترقب جرجس وتلازمهُ من حيث لا يدري ملازمة الخيال ورشتها ببضعة دريهمات ووعدتها بغيرها فذهبت الوصيفة تسعى في هاتهِ المهمة جهدها

اما جرجس فلما رأى ان عامرًا وغيره من الحاشية رأوه وتنبهت لهُ خواطرهم لم يقصد غرفة الاميرة سلمى بل ذهب الى غرفتهِ وتزع عنهُ ثيابهُ وارتمى على السرير ليستريح ويدفع عنهُ وعثاء السفر وظنون اهل القصر وظل يرقب فرصة تمكنهُ من الانسلال الى غرفة سلمى واطلاعها على مآل ما قالهُ لهُ الامير سالم كما اوصتهُ هي قبل سفره فلم يفز بامنيتهِ لتكرار ذهاب الحاشية وايابهم وبينا هو ينتظر طرق باب القصر طرقًا دوت لهُ الجدران فتراكض الحشم وفتحوا الباب واذا الامير راغب قادم فاستقبلوه بما اعتادوا عليهِ من الاحتفاء وولج غرفتهُ ريثما يدل ثيابه وذهب بعد ذلك الى غرفة غادرة فأنبأها بان رحلتهُ تمت على غاية ما يرام وانهُ استكتب ابنة عم زوجه كتابًا تدعو فيهِ الاميرة ليلى اليها فاستحسنت غادرة صنعه وقالت اذهب حالاً وبلغ ليلى الكتاب حتى تسافر هذه المساء فقام من فوره ودخل على زوجه فرأى عندها حفيدتها ليلى فقال لامرأتهِ كنت عند ابنة عمك ترويضًا للنفس فرأيتها منحرفة المزاج وقد طلبت اليَّ ان تذهبي اليها مع ليلى لانها في منتهى الشوق اليكما ثم اردفت بقولها وان لم يمكن قدومهما معًا فلتأت ليلى اولاً ثم تليها سلمى بعد بضعة ايام وهاك الكتاب الذي حررته في هذا المعنى

قال هذا واخرج كتابًا ودفعهُ الى مخاطبتيهِ وخرج فقالت سلمى لحفيدتها انا لا اقدر ان اذهب الان لعدة اسباب واهمها اني انتظر بفارغ الصبر قدوم ابني جرجس لاعانقهُ واعلم جواب الامير سالم فاذهبي انت وحدك الان ريثما اكون قد فزت برؤية ابني فاتبعك بعد بضعة ايام فرضيت ليلى بذلك وجعلت تهيئ امتعتها وتعبي هميان السفر حتى اذا ما لاح الفجر اعدت لها المركبة لتسافر عليها

ولم تبرح الاميرة سلمى في الليل الذي يحيت آيتهُ غائصة في تيار من الهواجس هائج مائج تفكر تارة في ابنها جرجس فيذوب فؤادها شوقًا اليهِ وتفكر طورًا في زوجها وغادرة فينفر

قلبها وتخشى على نفسها منهما ولذلك رأت من الحكمة ان تضمن لابنها المستقبل فقامت قبيل الفجر وحرّرت صكًا تهب بموجبه ابنها الحقيقي جرجس جميع اموالها وعقاراتها وانسلت الى غرفة ليلى قبل سفرها وقالت لها : يضطرني الحال ان ابقى ههنا ريثما ارى جرجس ولكني خائفة على نفسي من صروف الزمن فان طرأ عليَّ طارئ انصرفت اموالي كلها الى يد زوجي راغب ولذلك قصدت استدراك الامور وحررت هذا الصك ووهبت بموجبه عند حدوث امر ذي بال جميع اموالي الى ابني الحقيقي جرجس

فقالت ليلى لا سبيل لهذه الهواجس ولا غرو انها من قبيل الاوهام

— قلبي يحدثني بان سماء الحوادث متلبدة بسحائب النوائب فالحازم من يتوقى على بعد واستدرك غده في امسه ولذلك حرّرت هذا الصك واردت ان اسلمك اياه فاحفظيه عندك في حرز حريز

— اني على ما تشائين فهاتهِ

واخذت ليلى الصك ووضعته في جيبها وودعت سلمى وراغباً وعادرة وركبت العجلة المعدة وسارت

اما جرجس فقد قلنا انهُ بات يرقب الفرصة للاختلاء بالاميرة سلمى واطلاعها على مآل الرسالة التي بعثتهُ بها . ولما سدل الليل سجوفهُ واستتر الحشم ذاهبين آنبين اخفاء بقدوم سيدهم الامير راغب استلقى جرجس على فراشهِ انتظاراً لخلوّ الجوّ وسيادة السكون فطال انتظاره الى حد غلب معهُ النعاس عينيهِ فاجهد نفسهُ في السهر الى ان مضى هزيع من الليل فسكر بخمار النعاس وزادت في نعاسهِ مشاق السفر فمال رأسهُ الى الكرى ونام رغمًا عنهُ ولم ينتبه الا عند الصباح فهب من فراشهِ وهو يلعن شيطان الكرى الذي سطا عليهِ بالامس وغسل وجههُ وهندم زيه وتطلع من صير الباب ليرى ما كان جارياً في الدار فلم يرَ احدًا البتة. وكانت ليلى قد سافرت منذ الفجر وعاد الامير عامر وغادرة كلٌّ الى غرفته وكذلك الاميرة سلمى عادت الى غرفتها وهي في اشواق حرى لرؤية جرجس فقال جرجس في نفسهِ نزالة القصر كلهم نيام بعد وهي فرصة مناسبة ففتح الباب وانسل الى غرفة سلمى فاستأذن باشارة خفية ودخل فرأى الاميرة سلمى جالسة على اريكة فلما رأتهُ احمرّ خدها وخفق قلبها ووضعت يدها عليه واسرعت

حالها يقول :

لا تنكروا خفقان قلبي والحبيب لديَّ حاضر
مـا القلب الا داره ضربت لهُ فيها البشائر

واستقبلتهُ بوجه بشوش فتادب جرجس وسلم فاذنت لهُ بالجلوس فجلس وهي تحـدق بصرها فيهِ وتقول في نفسها هذا هو الامـير انيس بعينهِ فوافرحتاه ثم تمالكت وقالت اجلس فجلس جرجس وهو متعجب من احداق الاميرة سلمى به فقالت لهُ ما وراءك

ـ وصلت دار الامـير سالم واستأذنت فاذن لي فدخلت عليهِ منفرداً في غرفتهِ فسلمتهُ الكتاب ووقفت على عدة فتلاه ثم اطرق ساعة وقال اقرئي الاميرة سلمى سلامي وقل لها اني سأُعرج عليها بعد ثلاثة ايام حيث اخطر خطرة في نواحي قرية المنتزه لبعض حاج اقضيهـا ثم فسلمت وخرجت احث السير حتى بلغت القصر مساء امس ولم اتمكن في الليلة البـارحة من تبليغك مآل هذا الامر لانك اوصيتني بكتمان السر ولم يخلُ لي الجو حتى انسـل الى غرفتك دون ان يراني احد

ـ عشت ايها الشهم ونعشت

ثم تحفز جرجس للانام خوفاً من ان تفوته الفرصة او ينتبه احد لوجوده عند سلمى فاستوقفتهُ هذه وقلبهـا يخفق خفقاً شديداً وقالت لهُ اندلاح لي اول مرة رأيتك انك من اسرة شريفة واستطلعتك طالع قصتك فسردتها عليَّ لكني لم انتبه لها تمام الانتباه فلو تفضلت وسردتها عليَّ ثانية فعجب جرجس وقال سيدتي ليس في قصتي ما يقتضي الانتباه فانها قصـة بسيطة ولم اكُ الا لقيطاً أخذ من على باب الكنيسـة في قرية النيل وربي في حجر قرويين يدعيان يوسف وحنة

فصمتت سلمى حينـاً ثم اخذت تسرد على جرجس قصة زوجها وتشكو اليـه همومها وتبثهُ كربها وما يحوك في صدرها من الاكدار التي بعثتها فيهِ مطالب زوجها ومطامعه

فانصت جرجس لهـا بادئ الامر لكنهُ قضى اخيراً بالعجب وقال في نفسه لمَ ياترى تسرد عليَّ هذا الحديث ثم انتبه الى ان الوقت يمضي ويفوت وان عاقتهُ عند سلمى ربما احدثت ضرراً له ولها واعقبتهما الندم فتـأدب وقال للاميرة سلمى بلهجة الاستعطاف

ـ لا يغرب عن ذهنك مولاتي ان وقتنا حرج وان العيون متطلعة الينا فاطالة الاجتماع قد

تكون سبباً لمحاذير وقد بلغتك المسألة المهمة فاذني لي بالانصراف

فلم تعره سلمى اذناً صاغية بل استطردت حديثها الى قصة حياتها منذ شبت وترعرعت وتزوجت بالامير انيس وما طرأ عليها من صروف الزمن ونوائب الايام عند مقتل زوجها وسلب طفلها

فضاق جرجس ذرعاً خشية من العيون النمامة وقال للاميرة

— مولاتي بودي لو اقيم سحابة نهاري عندك لاستمع حديثك الحلو ولكن الضرورة تدعوني الى الانصراف خوفاً من ان يعزى اجتماعنا الى مقصد ردي. فامسكت سلمى بردنه وقالت له في نفسي حاجة اطلبها اليك بعد

— مري تطاعي

فقالت سلمى بصوت يتهدج من شدة الفرح اريد منك ان تدعوني يا امي

فبهت جرجس واحدق بالاميرة سلمى مليا ولم يجب بنت شفة فاستأنفت الاميرة قولها هلا تدعوني يا امي وتعانقني وما هذا الصمت المريب

فزاد اندهاش جرجس وظن ان جنوناً ألم بعقل الاميرة سلمى وقال قولك ايتها الاميرة يدهشني جداً ولست ارى من دليل عليه

فصاحت سلمى من كبد حرى نعم نعم انا امك وانت ولدي ومهجة كبدي

وجعلت تقص عليه ودموع الفرح تنهمر من عينها كالسيل المدرار جميع الدلائل التي تقضي بكونه ابنها وابن الامير انيس زوجها الاول ثم هبت من اريكتها وارتمت عليه تقبله ويقبلها وتعانقه ويعانقها وتضمه ويضمها وقد اسكرتهما حميا الجذل والحب وباتا متعانقين بظل الابتهاج

وانهما لعلى هاته الحال اذ دفع باب الغرفة دفعة اشبهت هزيم الرعد فدوى لها القصر من اقطاره الاربعة وانكسر من عنفها باب الغرفة ودخل الامير راغب وشرر الغضب لامع في عينيه وشقشقة الغيظ مزبدة في فمه وسيف النقمة مسلول في يده فزمجر زمجرة الاسد وصاح

— ويلك يا ذال يا لكاع أتتخذين عاشقاً وانت في قصري اين شرفك اين شرفي وطئتهما برجلك واتخذت من دوني حبيباً الويل لك ثم الويل لك لاجعلنك وحبيبك عبرة لمن اعتبر بين العالمين ولاذيقنك من العذاب الوانا جزاء ما جنت يداك

فجمد الدم في عروق جرجس وسلمى وظلا شاخصين كشخصين من المرمر الابيض الناصع ولو نزلت صاعقة من السماء عليهما لكان تأثيرها عليهما اقل فعلاً من تأثير راغب لما دخل وهو يزأر كاللبوة المشبلة

ورجع المتعانقان بالسكات حيناً ليس بيسير فشخر راغب وصفر وصاح باللرجال فادر نفق اهل القصر برمتهم فقال للجنود اقبضوا على هذين الخائنين واودعوهما اقاصي السجن المدلهم فانتبهت سلمى اذ ذاك واستعادت شعورها الذي كاد يغيب وفكرت في ما عساها ان تحتج به لدى زوجها أتقول له ان جرجس ابنها او تقول لهُ انهُ رجل اجنبي عنها فان احتجت بالقول الاول كان راغب قاتل جرجس لا محالة وان احتجت بالثاني ثبت لدى زوجها انها عاشقة جرجس وقويت حجتهُ بقتله او قتلها معهُ فحارت في امرها حيرة التيه واصبحت كالاشقر ان تقدم نحر وان تأخر عقر فصاح صائح في عقلها ويلاه ما العمل خاب الامل رب بك استغثت من جور الجائرين والتفتت الى زوجها فقالت رحماك يا راغب رحماك دعني اقبل ثرى قدميك واعف عن هذا المسكين البريء

وانطرحت على اقدامه تقبلها وتغسلها بدموعها الحرى

فدفعها زوجها دفعة عنيفة وزجرها بقولهِ اليك عني ياخائنة أخيانة وافكاً ان ذا والله عظيم . ويلك كيف تقولين ان هذا الشاب بريء وهو يهتك عرضي وينهك حرمتي وقد رأيتكما رأي العين متعانقين

— اقسم لك بمن في يده حياتي ومماتي اقسم لك بمن برأ المخلوقات طراً ان هذا الشاب بريء

— لا تحاولي اقناعي بما تزعمين وكفاك كذباً وافكاً . والتفت الى الجنود وقال هيا كلوا هذا الخائن بالقيود وقودوه الى السجن فاذعن الجنود وساقوا جرجس وهو منكس الراس كسير القلب هامي الدموع وخرج الامير راغب معهم واوصد غرفة الاميرة سلمى فظلت هذه وحدها فثارت اشجانها وصاحت من كبد حرى ويلاه اذا الت بولدي ملمة فاني لا محالة هالكة من الحزن وانطرحت على الارض كأن صواعق الاحزان قصمت ظهرها ولبثت حيناً لا تبدي حراكاً ثم استنهضها الاضطراب والخوف على حبيبها فبكت بكاء مراً وصاحت اواه ما كنت انظر ابني حتى سلبتني اياه الايدي البربرية وجعلت تنوح وتردد :

بابي من وددته فافترقنا وقضى الله بعد ذاك اجتماعا
فافترقنا دهرًا فلما التقينا كان تسليمهُ عليَّ وداعا

وما برحت مراجل الاشجان والاحزان تغلي في صدرها وتكوي فؤادها حتى عصفت بها رياح اليأس فارخت شعورها ومزقت جيوبها ولطمت خدودها ووقعت من خور القوى وهي تقول :

اخذوا الحبيب فياحشاي تقطعي اسفًا عليهِ وياحشاشة ذوبي

﴿ الفصل الثاني ﴾

يا الهي كن نصيري ساء في البلوى مصيري

لم يكن سبب هذه الحوادث المفجعة في قصر المنتزه سوى غادرة الخبيثة المحتالة فانها كما ذكرنا في الفصل الماضي ارتابت من عودة جرجس المستعجلة واوعزت الى بعض وصيفات القصر بملازمة جرجس ومراقبة حركاتهِ وسكناتهِ فاذعنت هذه لامر سيدتها ووقفت لجرجس بالمرصاد من حيث لم يرَها لانها كانت برعت في هذا الفن لطول مزاولتها لهُ فلما رأتهُ انسل عند الفجر الى غرفة الاميرة سلمى اسرعت على الفور وانبأت سيدتها غادرة بذلك فاوعزت اليها هذه ان تنسل وتطلع من صير الباب على مايجري بين جرجس وسلمى في الغرفة وذهبت غادرة فاطلعت الامير راغبًا على ذلك فارتاب الامير بادىء الامر في ما قالته غادرة فقالت لهُ انما احدثك بالحق الصراح وسوف ترى اني محضتك الصدق فانسل هو وغادرة الى غرفة مجاورة لغرفة امرأته وجلس ينتظر عاقبة الامر اما الوصيفة فظلت واقفة على باب غرفة سلمى تنصت وتتطلع من صير المفتاح ولم تكن لتسمع ما جرى بين الاميرة وجرجس من الحديث لاتساع الغرفة وجلوسهما في اقصاها حذاء الاريكة وخفض صوتهما بالحديث لكنها رأت جميع حركاتهما فلما ارتمت الاميرة على جرجس وجعلا يتعانقان هبت تركض واخبرت غادرة والامير راغبًا بما رأت فغضب هذا غضبًا شديدًا ولم يصدق قولها حتى جاء الباب فتطلع منهُ فبلغ سيل غضبه الربى ودفع الباب تلك الدفعة العنيفة التي وصفناها وصنع ما صنع بعد ذلك

وما برح الامير راغب مصاحبًا للجنود حتى انزلوا جرجس الى اقاصي السجن المجاور لخنادق

السور وزجوه فيهِ فعاد راغب الى غرفة الاميرة سلمى زوجه ودخل فاذ هي مطروحة على الارض مقطوعة النفس شاحبة الوجه غائرة العينين كأن المصيبة التي اصابتها ذهبت بحيـاتها فاوعز الى الخدم بانعاشها فانتعشت وانتبهت من سباتها كانهـا خارجة من لج عميق مظلم فاجالت في زوجها نظرة الحائرة واستجمعت شتـات عقلها فتذكرت الحوادث فارتجفت اعصابها ونهضت فقالت لزوجها وفرائصها ترتعد رحماك ما فعلت بجرجس

فاجاب الامـير راغب متهكماً يالك من قرينة صالحة امينة ترتعد خوفًا على حياة معشوقها

ـ ألم تكفك الايمان المغلظة التي حلفتهـا لك بانهُ ليس بمعشوقي

ـ انما هي ايمان كاذبة واقسام واهية فلاتشفعي خيانتك بالكذب الذي من شيم اللئام

ـ وما دليلك على انهُ معشوقي هل لي من السوابق ما يقضي بذلك او رأيتني في ما سلف من الاعوام اميل الى سواك او اتخذ من دونك صاحبًا ألم يكفك اختبار سنين طوال كنت فيها معدن النزاهة

ـ شقشقة لسان لا طائل تحتها فلا يحتاج ما رأيتهُ رأي العين الى دليل :

وليس يصح في الاذهان شيء اذا احتاج النهـار الى دليل

فاوجست الامـيرة سلمى خوفًا من ان يكون راغب قد اوقع بجرجس او الحق به ضررًا فقالت مستغيثة رحماك ما فعلت بجرجس

ـ لو اطعت غضبي واستوفيت حقي لقتلتهُ امامك قتـلًا ولكني راعيت شرفك ولم اقصد اشهار خيانتك لدى الناس ولكن ذلك لن يمنعني عن الايقـاع به وهو الان في اقاصي السجن المظلم يفكر في عقاب من يخون سيده وغدًا عند الصباح اعلق مشنقتهُ بجذاء غرفتك حيث يشنق جهرًا امام عينيك

فصاحت الاميرة وقد هاج بها اليأس ويلاه اتصنع ... تقول ياظالم اتقتل بريئًا ناصع الذيل اتلطخ يديك بدم طاهر زكي

فاجاب راغب بلهجة التهكم نعم نعم حكمت عليهِ بالقتل وسيقتل لا محالة وادرك منهُ ثأري

فاحدقت الاميرة سلمى بزوجها ورشقتهُ بنظرة احد من السهام وقالت وهلا تقتلني انا معهُ

ـ انت امرأة ضعيفة

ـ انا امرأة ضعيفة وانت تذيقني الوان العذاب وتظلمني وتقهرني وتكيدني بما يفوق الموت مرارة ولكنك لن تجترىء على قتلي لانك تعلم ايها الظالم الجائر «ان القاتل لا يرث قتيله »

وكانت لهجة الاميرة سلمى لهجة تهكم واستهوان فوقعت في قلب راغب موقع السنان وتلعثم فزادت سلمى ثباتاً وقالت أصغ الى ما اقولهُ لك وعِه عذبني كيف شئت ولكن لا تمس شعرة من رأس جرجس والا فالويل لك

فصاح الامير بلهجة الغضب : ويلكِ اتهديداً وانت المذنبة

ـ لا اهدد ولا اوعد ولكني آمرةٌ

فغلى مرجل الغيظ في صدر راغب وقال لا تعارضيني في ما اصنع ياسلمى فاني في هذا المكان السيد الآمر الناهي وقد اصبح هذا الشاب في حوزتي سواء كان معشوقك او لا ولا غرو انهُ عزيز عليك وان حياته ومماته متوقفان على كلمة من فمي فانتبهت سلمى الى ان لهجة المخاشنة تعود بالضرر على جرجس لا بالنفع فغيرتها وطأطأت رأسها واجابت بصوت خافت حق ما تقول ولكن رحماك اعذرني فان رشدي ضاع مني ولست ادري ما اقول فلست بمهددة ولا بآمرة ولكني طارحة مسألة هذا الشاب بين يدي عدلك ورحمتك واني اقسم لك ثلاثاً بابيك اذا اوقعت به اوقعت بشاب بريء وغمست يديك بدم طاهر فاستدرك الامر لئلا تندم ولات ساعة مندم ولم اكلمك فيما سبق بلهجة الغضب الا لاصدك عن امر يعقبك ندماً وحسرة

وكان الامير سالم اثناء حديث زوجه واقع الطائر هادىء الحيا فلما انتهت حدجها بنظرة غريبة وقال بلهجة المرارة والغيرة ما اشد شغفك به

فبرقت اسرَّة سلمى من هذه الجملة لانها استشفت من ورائها شرارة حب لها في قلب زوجها لان الغيرة ربيبة الحب فقالت لا يخفق قلبي لهُ بالشغف ولكن بعرفان الجميل لانهُ نجاني من موت مبين فقال الامير بلهجة السخرية كفاك حججاً واهية ياسلمى فلو قدرت لقلت ان حبك لهُ حب الوالدة لولدها

ـ وماذا يصدفني عن ذلك الا يمكن ان يكون ولدي

ـ صه صه غيري بهذه السفسفة مقتنع وسواي بهذه الاباطيل معتقد

فلما رأت سلمى ان لا نفع في الاقناع وان كلامها ذهب درج الرياح رفعت ذراعيها نحو

السماء وصاحت من صميم الفؤاد الله يدينك بما تدينني

— لابأس فاني اقبل بالتبعة واحمل مسؤولية عقاب هذا الشاب على عاتقي . اما انت فتسجنين في حجرة من حجر السور ولن تري احدًا ما خلا خادمة تخصص بقضاء حاجك

— فانا من ثم سجينتك

— نعم

— وهل لا يمكنني اشتراء حريتي

— كلا

— ولو بغالي الثمن

• فتوقف الامير برهة ثم اجاب كلا

— اني عارضة عليك عقدًا لعلك ترضى به وهو ان تطلق سراح هذا الشاب وتفك اسري وتدعني اعيش في املاكي بقرية النيـل وتأخذ كل ما لي من العقار من دونها فاني اهبك اياها هبة بلا عوض ولا ارتجاع وها انا مستعدة لكتابة ما قلت ولتوقيعـه سلفًا اذا شئت ان تعدني بالقبول فما قولك

ففكر راغب وقال في نفسه والله انها لصفقة رابحة ولكن كلمات غادرة دوت في آذانه « الا وهي «اياك والقبول بفك اسرهما ولو اهدي اليك مال الدنيا باسره » فقال ثالثة كلا

— حذار فسوف تندم

— ان صح ما تقولين فلن تكوني بمأمن ولن تشهدي ندمي

قال الامير راغب هذا القول بلهجة التهديد وخرج فاصبحت سلمى وحدها منتصبة وقوفًا فشعرت بخور قواها لما تحملته من طوارئ الاكدار وعواصف الاحزان فاستندت الى الجدار فزاد الخور في قواها فاجتهدت في بلوغ المقعد للاستراحة فخانها الجلد فانطرحت مكانها فريسة الاغماء ولسانها يردد الطف بي وبولدي يالطيف .

وذهب راغب الى غرفة غادرة فرآها متكئة على اريكتها كأن لم يكن شيء وحولها زرافي حريرية مبثوثة فرحبت به وقـالت عمَّ انجلت نتيجة الامر

ـ اودعت جرجس السجن وحكمت على سلمى بالحبس ولكن الغضب اخذ مني عندما رأيتها تعانق حبيبها مأخذاً لم يكن في الحسبان ولو طاوعتهُ لقتلتها وقتلتهُ لكني تذكرت وصيتك فكظمت الغيظ وتمالكت

ـ حسناً فعلت اذ انك لو قتلتها لحرمت من ميراثها وفقدت من ثم اموالاً طائلة ولكن فديتك اطلعني على ما قالت لك سلمى لما رأيتها وحبيبها متعانقين

ـ سألتها من يكون هذا الشاب فاجابت انهُ منقذها وانها تحبهُ حب الوالدة فقهقهت من مقالها وقلت لها انهُ لا غرو معشوقها فانكرت كل الانكار

ـ وهل لم تقر اخر الامر

ـ كلا اصرَّت على الانكار

فعجبت غادرة وقالت في نفسها تالله لا بدان يكون وراء الاكمة ما وراءها ثم قالت لراغب وما نويت بشأن جرجس

ـ غداً اشنقهُ امام اعين الاميرة سلمى

ـ لا استصوب هذا الرأي لان المسألة تشيع فيعرف الناس انهُ عشيق امرأتك

ـ ما العمل اذن

ـ الاولى ان تقتلهُ سراً وهو في السجن حتى لا تذيع مسألتهُ

وانهما لعلى هاتهِ الحال اذ قدمت الخادمة التي خصصها راغب لخدمة سلمى وقالت استصحبت خادماً وذهبت لانقل الاميرة سلمى الى سجنها في حجرة السور فرأيتها مطروحة على الارض كمن اغمي عليهِ فماذا يجب ان اصنع فاجابت غادرة لا باس انقليها الى سجنها فتفيق هناك فقالت الخادمة ربما اعتراها عارض فهلا استدعي الطبيب سريعاً لعلهُ يبذل لها بعض المنعشات فتفيق فقالت غادرة لا حاجة لاستدعاء الطبيب فعندي ههنا جوزة دواء منعش استعملهُ عند خور قواي فاليكه وصبي منهُ بعض قطرات في قدح ماء واسقها منهُ

وكان راغب غير منتبه فالتفت الى غادرة وقال ما هذا

فاجابت غادرة دواء منعش لسلمى

فاخذ الجوزة وفحصها واعادها الى الخادمة وكان اسم الدواء المذكور مكتوباً على صفحة

الجوهنة فاخذتها الخادمة فقالت لها غادرة عودي بها اليَّ متى انتهيت منها

فاذعنت الخادمة وذهبت بها وكانت هذه الجوهنة هي التي تستخدم غادرة دواءها المنعش عند الاغماء ولكنها ابدلت الدواء المنعش بسم ذعاف

ولما افاقت سلمى رأت نفسها في حجرة من حجر السور السفلي ممدودة على فراش من الصوف الخشن فتطلعت حواليها فلم ترَ في الغرفة سوى منضدة وكرسي وجدران سوداء وكوة ينبعث منها الظلام بدلاً من النور فغمها منظر الجدران الكئيب . وصاحت ويلاه اين انا فاجابها صوت من وراء الفراش

— لا تخشي يا سيدتي فاني عندك اهيىء لك منعشا

ولم تكن المجيبة سوى الخادمة التي ولجها الامير راغب في قضاء حاج الاميرة وكانت بعد ان نقلتها الى تلك الحجرة المظلمة تناولت قدح ماء واخذت تصب فيهِ بضع قطرات من الدواء « المنعش » الذي اعطتها اياه غادرة ثم اتت بالقدح ووضعتهُ على المنضدة امام سلمى وقالت لها

— اذا عطشت سيدتي فعليها بهذا الشراب الذي ينعش القوى الخائرة

— شكرًا لك ولكن قولي لي من نقلني الى هذه الحجرة

— انا واحد الخدم

— وهل ظللت زمنًا طويلًا في حال الاغماء

— نعم وقد اضطربت لذلك وعرضت ان استدعي الطبيب

— وهل الطبيب الذي وصف لي هذا الدواء

— كلا لم يأت وقد اعطيلي (ولم تتجاسر على ذكر غادرة) هذا الدواء كمنعش ناجع فصببت منهُ بضع قطرات في الماء فعلى سيدتي ان تشرب هذا القدح اذا شعرت بخور او ضعف

فتناولت الاميرة سلمى القدح ووضعتهُ على شفتيها واوشكت ان تقلبهُ في فيها لولا ان اعتراها فكر شديد الهول فقالت في نفسها

— ويلي لعل هذا الشراب مسموم فاوقفت يدها وقالت للخادمة ارى ان قواي الان ليست بخائرة فعلام اشرب هذا الدواء

— افعلي كما شئت سيدتي واتبقيه عندك حتى اذا ما شعرت بانحطاط شربت منه ولكني

أوصيت ان لا اصب منه فوق الماء الا بضع قطرات فاياك والاكثار منه

ـ كلا

ـ وانا الان خارجة فمتى شئت استدعيتني بهذا الجرس وسأتعهدك من حين الى اخر

قالت الخادمة هذا وخرجت وبقيت سلمى وحدها فنامت تعويضاً لما فقدته من القوى وغرقت في لجج الكرى ...

عدنا الى ناج وما جرى له بعد ان ضمدله حبيب جرحهُ وقاده الى نزل القمر

اقام ناج في الغرفة الخاصة التي اعدها لهُ حبيب وترع ثيابه وتمدد على الفراش لكي ينام فيستجمع بالنوم قواه المفقودة ولكنه لم يغمض جفنهُ حتى قرع باب النزل قرعاً عنيفاً ففتح حبيب الباب واذا بعامر الذي كانت غادرة قد اوفدتهُ في طلب فارس وحنا

وكان عامر هذا بعد ان احبط سعياً في العثور على المندوبين المذكورين عرج على حبيب ليشرب عنده زجاجة من الخمر المعتقة ترويحاً للنفس وازالة للتعب ولم تكن هذه المرّة بالاولى اذ انه اعتاد على ذلك من زمن مديد ولاسيما انهُ لم يكن ليؤدي فلساً عن جميع ما يشربهُ

فاستقبل حبيب هذا الضيف الثقيل وهو ممتعض لكنهُ لم يبدِ على وجهه شيئاً من امارات الاستياء لانه كان يكرم عامرًا اكراماً للاميرراغب ولاسرته . فقال عامر هل لم ترَ فارساً وحنا فتجاهل حبيب وقال ومن يكون هذان الرجلان

ـ هما جنديان في القصر وقد خرجا منذ البارحة فلم يعودا

ـ لا اعلم

اما ناج فظلَّ في غرفته يسترق السمع ويلعن الضيف القادم ويقول في نفسهِ تالله لابد ان يكون في قصر المنتزه دسيسة ما

ولما انتهى عامر من كرع الزجاجة امتطى فرسهُ وبارح نزل القمر فوقف حبيب يشيعه حتى بعد عن القصر فعاد حبيب وهو يقول ارسلك الله ياعامر الى حيث القت رحلها ام قشعم فانك تأكل مالي انا الفقير السبروت وتمرح انت في السعة ثم فكرّ بما اطلعه عليه ناج من ان باعث فارس وحنا في قتله انما هو عامر وان هذا مدفوع من غادرة فهاجت حماسة حبيب لدى هذا الفكر ولاح بعصاه وقال جلَّ طلبي من الله ان يمكنني من عنقك ياعامر الملعون لحظة عين فقط حتى

اجازي اياديك البيضا

وسمعه ناج من غرفته فقال اللهم استجب طلبه ولما كان الغد هب ناج من نومه وقصد مبارحته لكن حبيباً وامرأته ما بعداه فلم يرض بملازمة الفراش الا بشرط ان يطلع احد صاحبيه جرجس على ما جرى له فوعدته امرأة حبيب بقصد القصر في الغد والاحتيال في اطلاع جرجس على ما جرى لناج

ولعلَّ القارئ عجب كيف اصيب ناج اول يوم برصاصة في كتفه واراد في اليوم الثاني مغادرة الفراش كأن لم يصبه شيء فنقول ان بنية ناج لم تكن عادية بل بنية جبار شديد المراس فضلاً عن ان اقتحامهُ للاخطار والاهوال بعث فيهِ روح شجاعة غريبة وبسالة لا تكترث لاسود الشرى فلذلك رأيناه قاصداً تزل القمر سعياً على الرجلين بعد ان اصيب بساعة وقاصداً مغادرة الفراش قبل ان يضمد جرحه . على انهُ رضي بالشرط الذي سلف ذكره وظل في فراشه لكن قيامهُ في تزل القمر طوي في حجاب السرّ فلم يطلع عليهِ احد من جميع الذين انتابوه .

وفي النهار نفسه رأت امرأة حبيب الاميرة ليلى مارَّة في العجلة فاستوقفتها وعقدت معها اطراف الحديث فعلمت منها انها ذاهبة الى بيت ابنة عم الاميرة سلمى وان هذه ستلحق بها بعد بضعة ايام . فاطلعت قرينة حبيب ناجياً على هذا التفصيل فقال في نفسه والله لم يرقني هذا الخبر لاني استشف من ورائهِ دسيسة من غادرة فاما ان تكون علمت بحب ليلى وجرجس فابعدت الاولى تفادياً من تفاقم الشر واما ان تكون ابعدت ليلى لتبقى الاميرة سلمى وحدها ويخلو لها الجو فتوقع بها

وعزمت سعدى قرينة حبيب على الذهاب الى قصر النزه فتأبطت بعض البقول وحملت سلة بيض الى الاميرة سلمى وذهبت فلما وصلت دخلت على سبيل عادتها فرأت عامراً بالباب يسرح جياد الطرف ويدخن فطارحتهُ السلام فاجابها بما دلها على تغيير طارئ في القصر فاستأذنت الدخول الى الاميرة سلمى فمانعها عامر فلاينتهُ واستعطفت خاطره فلم يأذن لها ولم يطلعها على السبب فسألت عن جرجس فلم يجب بشيء . فاحتارت في امرها ووقفت حيناً تجيل قداح الفكر في ما عساها ان تصنع كي تعلم اين الاميرة سلمى واين جرجس وكانت تعرف ما انطوى عليهِ عامر من الجشع والطمع والدناءة فقالت والله ان يحل لسانه من العقال

مثل الرشوة فقد قيـل ان اللهى تفتح اللهى فدنت من عامر وفي يدها سلة البيض وهي تنظر اليها فقال هذا ولمن هذه السلة

ـ للاميرة سلمى لاني اعرف نحافة مزاجها وقد جمعت لهـا احسن ما عندنا من البيض وقصدت اهداءه اليها والهدية على مقدار مهديها

فتناول عامر واحدة وقال وهو بشوش الوجه بسـام الثغر : بيضك فاخر يا سعدى وما انت صانعة الان والاميرة سلمى ليست ههنا

فاجابت سعدى على الفور

هل اهدي هذه السلة وهذه البقول الى اعز منك في غياب الاميرة سلمى فتنازل لقبولها من خادمتك

فسرّ عامر وكشر عن انيـابه وقبض على السلة والبقول وقال شكرًا لك

فاغتنمت سعدى فرصة ابتسامه وقالت لكن فديتك ابنني بمكان الاميرة سلمى فاخذها على انفراد وقال لها اكتمي السرّ واعلمي ان الاميرة سلمى في السجن وكذلك جرجس فلا سبيل لاحد ان يراهما

فعضت سعدى على بنـانها وقالت ويلاه وكيف ذلك فديتك قل لي فان هذا الخبر قد احدث فيّ اضطرابًا عظيمًا

فلم يطلعها عامر على السبب فالحت فذهب الحاحها سدى ثم جاء خادم يدعو عامرًا لسيده الامير راغب فاسرع عامر وذهب فطلقت سعدى تسأل الخادم فانكر هذا بادئ الامر لكنها ما برحت تستعطفه وتبذل له من دريهماتها حتى اقرها بالحق فعادت على اعقابها قاصدة نزل القمر وبانت ناجيًا ما جرى لها في قصر المـتزه وماسمعته ووعته

فهب ناج من فراشه عند سماع ما قالتـهُ لهُ سعدى وقال والله ان في ذا لغـاية العجب ومنتهى الغرابة ولا بد لي من الذهـاب هذه الليلة وولوج القصر من خنادق الاسوار وتخليص سلمى وجرجس فقال لهُ حبيب لن ادعك تذهب وحدك بل ارافقك اينما ذهبت

ولما ضرب الظلام اطنـابه وارخى الليل سجوفه تهيـأ ناج وحبيب واستصحبا ما يلزمهما وابرحا نزل القمر وما زالا يضربان في الصخور والوعور حتى انتهيا الى خنـادق السور ولم يكن

لهما من هادٍ سوى مصباح صغير فحملهُ ناج وتقدم رفيقه وهو يستهدي ببصره ويسبر الاراضي بعصاه وكان كلما رأى كهفاً ولجهُ وكلما عثر على جحر سبر غوره بعصاه حتى روّع وحش الفلا في اوطانه فهبت الضباع والثعالب وسائر السوام والهوام تجأر وتضبع وتصيء وناج وحبيب سائران لا يكترثان لها ولا يألوان جهداً في بلوغ الغاية والفوز بالامنية حتى رأى ناج غاراً عميق الاغوار اسود الجوانب مخضرًّا فقال لرفيقهِ قف فاني اظن هذا الغار موحلاً فانتظرني على حافته ريثما انزل الى قعره واتحقق مرمى ظني فامتثل حبيب فنزل ناج انسلالاً الى قعر الهاوية فرأى امامهُ موحلاً ثانياً افقياً فوحلهُ وهو يستنير بمصباحه الصغير ويلوح بعصاه ذات اليمين وذات الشمال حذرًا من وجود بعض الدواب او الهوام فمشى نحو عدة اقدام في ترهات معوجة تتفرع تارة الى الشمال وطوراً الى اليمين الى ان تحقق لديه ظنهُ فقال في نفسه والله هذا هو الموحل فعاد على اعقابه حتى بلغ فوهة الغار ونادى رفيقهُ حبيباً بصوت مهموس فلباه هذا ولحق به وجعل الاثنان يمشيان في حنادس الظلام تحت اسوار قصر المنتزه على مقربة من السجون وكانا في مسيرهما تائهين يخبطان خبط عشواء فيلجان في معابر اضيق من الخروق القطا ويصعدان في سلالم اشبهت انفاق اليرابيع وينقران على الجدران ليعلما اذا كان ما وراءها صامتاً او اجوف ومضت عليهما ساعة وهما سائران على هذا المنوال حتى عيل صبر حبيب الذي لم يتعود مثل هذه المسالك فقال لناج في بحران ضيقه ويلك ياناج الى اين تقودني لعلك قاصد مواصلة المركز الارضي او زيارة الجحيم فان كان هذا قصدك فلست والله بمشتاق الى رؤية الجحيم

فقهقه ناج وقال على سبيل المزاح ويلك ماضرك لو زرت اباك وامك المتوفين مرة في الدهر

— كلا احملك سلامي اليهما فان رأيتهما في خطرتك فاقرئهما اياه مقروناً بالتحية والاكرام

وان ناجياً وحبيباً لفي هذا المزاح اذ بصرا بنافذة نسج عليها العنكبوت وتكاثرت فيها الاوساخ فوقف حبيب وناج امام النافذة واذا بصوت انين وشكوى خارج منها فقال ناج لرفيقه لا غرو ان هذا سجن الاميرة سلمى وهي تئن من وطأة المصائب فلنتسلق ونتحقق الامر ولكن كيف السبيل الى بلوغها وهي عالية وحائطها من الصخر الاملس الصلد

فقال حبيب هاك ظهري فاصعد عليه وضعه على اكتافي وانا اقف منتصباً فاوصلك الى النافذة

— نعم الراي رايك

والمخبي حبيب ففعل ناج كما ذكر فبلغ رأسه اسفل النافذة فتطاول واحدق في جوف السجن فرأى شبح الاميرة سلمى ملقىً على الفراش وكانت هذه بعد ان اغفت غرارًا استجماعًا لقواها افاقت وهي منستكملة الحواس فراعتها دياجير السجن واطناب السكون المضروبة وآلمتها وطأة دائها المزايد فتجلدت واجالت في السجن نظرة ثانية فمثل امام عينيها شخص ابنها جرجس فذاب قلبها جوىً والتياعًا وقالت ويلاه كيف يقتل ابني وانا في قيد الحياة رب ان كان موته محتومًا فاجعل مماتي قبله ثم سرى فيها روح التقوى والامل بالله فسجدت على فراشها وتضرعت من كبدٍ حرّى وانطرحت وهي تردد الى مغيث الملهوفين ومجير المظلومين

يا الهي كن نصيري ساء في البلوى مصيري

الباب الثالث

الفصل الاول

ابى الحق الا ان يكون مظفرًا ابى البطل الا ان يكون معفرًا

وان سلمى لعلى هانه الحال اذ طرق سمعها حفيف قادم من جهة النافذة فارتاعت وهبت من فراشها واحدقت بها فاذا فيها شبح راس يطل فارتعدت فرائصها لعلمها بان السجون خالية خاوية وظنت انهُ شبح جني لان الناس كثيرًا ما رووا بانهم رأوا اشباح جان في اطلال اسواره فصاحت بمجموع قواها يا للرجال اغيثوني اغيثوني

فما كان الا كلمح القبس حتى قفز ناج وصار منها على مقعد القابلة فقال لها همسًا لا تخشي بأسًا فاني مقذ ارسله لك الرحمن

وكان من حسن حظ ناج ان الاميرة سلمى عند ارتعادها من رؤيته لم تقرع جرس الفداء الذي وضع لها في الغرفة وذلك لان انتباهها كاد يضيع ورشدها كاد يفقد ولو قرعت الجرس لاقبلت خادمتها واجتمع خدم القصر كلهم اما ندارها فضاع في قاع السجون ولم يسمعهُ احد ولما دنا منها ناج وكلمها ظلت بين الشك واليقين وراودها عقلها بان تلجأ الى الجرس فتقرعهُ استغاثة باهل القصر فامسك ناج على يديها وهدأ روعها

فاحدقت بهِ سلمى وصاحت

ـ عجباً عجباً أأنت ناجٍ صاحب جرجس

ـ نعم نعم انا هو بعينهِ

ـ وما اتى بك هذا المكان ومن اي باب دخلت واي سلم نزلت ماذا انيت تصنع ههنا

فقال ناجٍ قبل ان اجيبك بشيء يجب ان نتقي عيون الرقباء بالحذر الشديد

فاجابت سلمى لاخوف علينا لان وصيفتي لا تأتي الا نادراً ما لم انادها بهذا الجرس

فقام ناجٍ الى باب السجن واوصده وعاد فجلس وبينما كان ناجٍ يوصد الباب قالت سلمى في نفسها هذا منقذ جرجس ثم قالت لهُ

ـ هل تحب جرجس انت

ـ أحبهُ كأخي بل كابني

فقبضت سلمى على يد ناجٍ بحرارة وقبلتها بالرغم عنه وقالت شكراً لك ايها الشهم يترتب عليك انقاذه اذاً لانهُ في خطر مبين

ـ وما هو هذا الخطر المبين

ـ هو ان قتله محتوم غداً

ـ ويلاه ومن يجترىء على قتله

ـ ان الامير راغباً بغتتي واياه في غرفتي وامر بشنقهِ غداً عند الفجر

فوقع هذا الكلام في قلب ناج وقع السهام المسمومة فقال وي وي هذا شيء مستحيل في ذمتي فاهدئي بالاً فديتك ولا تحزني فاني مخلصهُ وان كان بين انياب الاسود فاين هو الان

فتنهدت سلمى واجابت لا علم لي وكيف اعلم وانا ههنا سجينة

ـ يجب ان تخرجي من هذا السجن على الفور ومتى قطعت الخنادق وسرت على الجادة العامة يرافقك صديقي هذا صاحب نزل الفمر واعود انا فاخلص جرجس

ـ لا لا خلصهُ اولاً ثم عد الي

ـ سيدتي لا اعلم الان اين هو وقد يمكن ان يضيع الوقت بدون ما اني مظهرهُ لك الان فلننجُ ولا نضع الفرصة حتى لا نقع في حكم ما قيل

وعاجز الرأي مضياع لفرصته حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقالت الاميرة سلمى اصبت فلنذهب ولكن كيف الخروج

ـ نخرج من خنادق السور

ـ وهل تعرف طرقها انت

ـ انا ابو عذرتها

فانتصبت سلمى واقفة ومشت خطوتين فشعرت بضعف شديد فقالت لناج ويلاه ان رجليّ لا تحملاني

ـ استندي الى ذراعي وتشجعي ولا تخشي

ففعلت سلمى كما قال لها ولكنها لم تخط خطوتين ايضاً حتى وقعت خائرة القوى وقالت لناج ويلاه مستحيل ان امشي لان قواي خامدة

فزادها ناج تنشيطاً بالكلام وحاول جرّها وهو يقول رحماك سيدتي كل دقيقة من هذه الدقائق الثمينة تعادل دهراً

فتجلدت سلمى وخطت خطوه ثم وقفت وقالت بصوت خافت مستحيل مستحيل اذهب وحدك فلن اقدر على اتباعك

فصاح ناج من قلب محترق تعساً لحظي لو كنت سليماً الان لحملتك بين ذراعيّ ولكني اصبت بجرح لعين منذ يومين في الخاصرة لعنة الله عليك يافارس ...

وانتبه لوجود حبيب في السلم وراء النافذة فصاح حبيب حبيب بدار بدار

فقفز حبيب من وراء النافذة حيث كان ينتظر وقال هاءنذا

ـ أأنت قوي البنية

ـ كيف لا

ـ أتقدر ان تحمل اذن الاميرة سلمى بين ذراعيك

ـ لا اسهل من ذلك لكن ...

ـ مالك قل

ـ قولي ان السلم اضيق من ان يسع اثنين

فاغتمّ ناج لان ما قالهُ حبيب كان هوالحق الذي لا ينكر وامعن الفكر في حيلة للخلاص فلم يجد فنظر الى سلمى نظرة المشفق المستغيث وقال

ـــ رحماك ياسيدتي هي حياتك فهل تتجلدين وتتبعينا زحفاً على اليدين والرجلين او كيفماشئت

فلم تجب الاميرة سلمى الا بايماء خفي يستفاد منه السلب ثم استراحت حيناً وقالت وهي تلهث

ـــ لقد رأيت ياناج رأي العين اني لا استطيع حراكاً فاذهب ودعني ولا تسل عني بل سل عن حبيبي ومهجة فؤادي جرجس

ـــ كيف ادعك انت والدة جرجس وماعساه ان يظن بي . ولكن ما الحيلة كيف العمل ... لا سبيل الى الخروج ويلاه ما احرج موقفنا ... وما اضيق الوقت ... واذا بقيت انت ههنا فمن يضمن لي ان اصحاب الدسائس في القصر لا ينصبون لك شباكاً قتالة بل من يضمن لي ان انحطاط قواك هذا لم يتأتَّ عن اثم فظيع او محاولة تسميم ... فرحماك ياسيدتي ما العمل آه لو كان معي منعش ما لسقيتك منه استعادة لقواك

فتذكرت سلمى الدواء المنعش الذي انتهابهِ وصيفتها وقالت لناج ذكرتني بالمنعش الذي أُتيت بهِ وهو على هذه المنضدة المحاذية لفراشي مهيأ للشرب في مثل هذه الساعة فارجو منك ان تناولني اياه

فهب ناج وتناول من على المنضدة القدح الممزوج فيه الماء « بالدواء المنعش » وتامل بهِ ملياً ثم قطب حاجبيهِ

فقالت سلمى مالك تقطب حاجبيك هذا هو الدواء نفسهُ وهذه جوْنته

فلم يجب ناج بل ظل يفحص الدواء ثم فتح سداد الجوْنة واشتمها ثم بل راس اصبعه وذاق قطيرة براس لسانه ونصفها واحدق بسلمى وقال لها باضطراب هل شربت من هذا «الدواء المنعش »

ـــ كلا ولمَ هذا السؤال

فتنفس ناج كمن افرج عنهُ وقال

ـــ حسناً فعلت لاني اعلم علم اليقين ان هذه الجوْنة التي تختص بغادرة تشتمل على سم

ذعاف واذكر ان هذه الواردة ارتني اياه يوم كنت لهو بها في البندقية وقالت لي وهي تمزج الجد بالمزح اذا خنتني يوماً ما فما لك الا هذا الدواء . .

فارتعدت فرائص سلمى لما علمت انها لولا رحمة الله لهلكت فقال تاج لقد رايت ايتها الاميرة الى اي حد تحيق الاخطار بك في هذا المكان المشؤوم والى اي حد يبلغ خوفي من مغادرتك وحدك في هذا السجن عرضة لكايد غادرة الشريرة وهدفاً لسهامها المسمومة

فاجابت سلمى العين بصيرة والذراع قصيرة

فقعد تاج واخذ يقدح زناد الفكر في ما عساه ان يصنع ليخلص سلمى من هذه الورطة فمضت ساعة وهو جالس مطرق بالارض وانظاره تغوص في بحار التأمل وتعوم ثم هب كمن انزل عليه الوحي وقال فتحت امامي ابواب النجاة فهل انت واثقة فيّ ايتها الاميرة

— كيف لا

— فاسمعي اذن وعي نحن الان في الهزيع الثالث من الليل وسيؤذن عمود الفجر بالانفلاق بعد هزيع اخر واذا ما اصبح اهل القصر غداً احمدوا بلا ريب الى شنق جرجس كما حكم الامير راغب فقد وجب علينا من ثم ان ناتي امراً خطيراً ينسيهم تلك المسألة ويذهلهم عنها ريثما يتيسر لنا تخليصه ومن انجع الامور المبلغة الى هذه النتيجة ان نأتي امراً يهدىء روع الامير ويطفىء نيران غضبه

فاجابت الاميرة سلمى فهمت كلما قلت ولكني لم ادرِ الى الان الى اي نتيجة تقصد الوصول

— لقد بنيت على الحال الحاضرة اي على ما حاولته غادرة من دسّ السم لك وقتلك حيلة حميدة العواقب ولكن اتمامها لا يخلو من بعض المصاعب وهذه المصاعب مترتبة على رضاك او رفضك فان رضيت بها زالت كلها

فاجابت سلمى لقد علمت اخلاصك وشهامتك فانا اطوع لك من بنانك فاشرح لي الحيلة التي نظمتها

— لا غرو ان غادرة هي التي دست لك السم لتقتلك

— ذلك امر لا ريب فيه

— وهي منتظرة بفارغ الصبر ان تبدو نتائج مكيدتها اي ان تهلكي (لا سمح الله) فيجب ان تتظاهري بما يحقق ظنها حتى تنشغل بك هي والامير راغب ويذهلا عن الامير جرجس

— معنى كلامك ان اتظاهر بالموت يارعاك الله فكيف يتيسر لي هذا الامر وفيه ما فيه من الصعوبة البادية

— هاك ما نظمت في فكري ارسل انا الان رفيقي حبيباً ليأتينا ببنج من تره

فتعجبت سلمى وقالت ولم البنج

— أليست ثقتك فيّ بتامة

— نعم

— فاسمعي اذن وعي ما اقول . يرد لنا البنج بعد ساعة من الزمن فيكون الصباح قد لاح فنطرح ما في هذا الجوزة وهذا القدح من السم ونملأ القدح ماء صرفاً واخرج انا من النافذة فاختبيء وراءها فتستدعين انت وصيفتك وتتظاهرين لها بالتألم الشديد وتقولين لها انك شربت كل ما في الجوزة من الدواء المنعش وانهُ لم يبقَ لك الا قليل منهُ فصبهِ في القدح ثم تتناولين القدح من على المنضدة وتكرعينهُ امامها فاذا ما مضى حينٌ تظاهرت بزيادة التوجع وقلتِ للوصيفة : ارى ان وطأة دائي قد اشتدت علي وان لم يبق لي من هذه الحياة سوى انفاس معدودة فاذهبي وذهبي غادرة وارسليها الي لاني اريد قبل الممات ان استغفرها واطلعها على امور مهمة

فتذهب الوصيفة لتنبه غادرة فانزل انا من النافذة باسرع من لمح البصر وانجك واخرج فتأتي غادرة فلا تشك بان سمها قد نجع وعلى هذا المنوال ينشغل اهل القصر بك فيخلو لي الجو فاستهدي الى مكان جرجس واخلصهُ واعود اليك فلا اثني ما لم اخلصك

وكانت سلمى تسمع ما يقول ناج وتظن نفسها حالمة فلما انتهى قال لها

— كيف رأيت هذه الحيلة

— هي حيلة خطرة ولكني ارضى بها واضحي حياتي في سبيل ابني جرجس فعجل اذن وائتنا بالبنج

فالتفت ناج الى حبيب الذي بلغ اندهاشهُ الحد الاقصى لما سمع من رفيقهِ وقال لهُ

— اذهب حالاً الى نزلك وائتنا بكمٍّ من البنج ولكن الوحى الوحى

فقام حبيب من فوره وقال لبيك وقفز من النافذة وغاب

فقال ناج لسلمى انا الان خارج ومختبي حتى اذا دخلت عليك وصيفتك على غير انتظار لم ترتب بشي وقام واعاد باب الغرفة الى ما كان عليهِ قبلًا وخرج فبقيت الاميرة سلمى وحدها وجعلت تفكر في الحيلة التي تنجو بردها ناج فوجدت فيها جلَّ الصعوبة من باب واحد وهو انها اذا نجت واستدعي الطبيب ليفحصها علم انها حية لم تمت واطالت البحث في هذه المسألة الى حد اقلقها لكنها تعللت آخر الامر بقولها اذا فاتت الحيلة يكون اهل القصر قد ذهلوا عن جرجس ريثما يخلصهُ ناج

وظلت تنتظر بذاهب الصبر قدوم حبيب فما مضت ساعة حتى عاد هذا وقد استصحب المطلوب

اما الوصيفة الموكلة في خدمة الاميرة سلمى فانها ملت السهر ومالت الى الكرى فهومت متعللة بانها تتنبه لقرع الجرس اذا ما دعتها الاميرة

فلما جاء حبيب نزل ناج من النافذة الى غرفة سلمى وطرح ما كان في الجرَّة والقدح من السم وملأ هذا ماء وقال لسلمى باشري بالحيلة وقصد النافذة ليخرج منها فاستوقفتهُ واطلعتهُ على ما خامر خاطرها وبعثها على القلق من ظهور الحيلة باستدعاء الطبيب

فاجابها ناج وهو يضحك لقد امعنت في جميع ما يعترض مشروعنا من المصاعب واستدركتها كلها وزوالها متوقف على رضاك كما قلت لك افلا تعلمين ان غادرة اذا راتك على الحال التي ستصبحين فيها ايقنت لا محالة انك ضحية مكيدتها وما منعت كل الممانعة من استدعاء طبيب حتى لا تبدو مكيدتها

فاجابت سلمى بالحق نطقت

— وعلى كل فمقصدنا الوحيد ان نشغل اهل القصر حتى يتيسر لي ولوجهُ واتخاذ جرجس دعلى فرض انه لم يتيسر لي ذلك لا سمح الله فاعلمي علم اليقين باني انعشك من سباتك ولو اضطررت الى اراقة دمي

— عشت وعشت ايها الشهم الكريم

وخرج ناج بعد ذلك ففعلت سلمى كما اوصاها فخرجت الوصيفة وهي مذعورة من حالة سلمى وخائفة من تنبيه غادرة في مثل تلك الساعة الحاكرة لكنها آثرت انفاذ امر سلمى

خشية من التبعة وذهبت قرعت باب غادرة

وكانت هذه (اي غادرة) غارقة في مهاوي الكرى لان حادثة الامس اشغلت خاطرها وبلبلت بالها الى حد نقر النوم من عينيها وسلط عليها الارق وما برحت على هاته الحال حتى مضى الهزيع الثاني من الليل فاشتدت عليها وطأة النعاس والنعاس سلطان فغرقت في لجج السبات ولذلك لم تسمع نقر الوصيفة على الباب فاستأنفت هذه الطرق حيناً من الزمن حتى افاقت غادرة وراسها متثاقل وفي عينيها لوثة الكرى فاندهشت من الطارق في السر وهبت وفتحت الباب وعنفت الوصيفة على جرأتها في طرق خدرها بمثل هاته الساعة فشرحت الوصيفة لديها ما دعاها الى هذا الفعل فلم تعجب غادرة لانها علمت نتيجة ايقاعها بسلمى لكنها تظاهرت بالعجب وتزملت برداء طويل الذيل وخرجت تصحب الوصيفة الى سجن سلمى وكان هذا الامر قد استغرق حيناً من الزمن تمكن فيه ناجٍ من تبنيج سلمى واكمال حيلته على اتم منوال فدخلت غادرة ودنت من فراش سلمى وهي تتبسم وقالت لها عمي صباحاً ايتها الاميرة فلم تجبها سلمى (طبعاً) فاستأنفت سلامها فما اجيبت فهزت سلمى هزاً عنيفاً فلم تنتبه هذه فعمدت غادرة الى يدي الاميرة ورفعتهما ثم ارختهما فوقعتا فدقت غادرة يداً بيد وصاحت ويلاه لا حياة لمن انادي قضت المسكينة فوا اسفاه اجل قضت من وطأة الاسى التي هاجت فيها غوائل السل الذي تأصل في جسمها فرحمة الله عليها

وما كان الا كلمح البصر حتى نشر النعي في القصر فملأه صراخاً وعويلاً وهب نزالته من سنة الكرى مذعورين والتأموا في سجن الاميرة سلمى وهم في نحيب مستمر وجاء في ساقتهم الامير راغب وفي نفسه عوامل شتى عامل من الحزن على وفاة امرأته وعامل من الشماتة لانه ايقن بان هذه الداهية التي انقضت على امرأته انما كانت من باب القصاص والانتقام الرحماني وعامل من الفرح لان وفاة امرأته حولت الى حوزته جميع ما تملك يدها من مال وعقار فوقف شاخصاً امام امرأته لا يدري ايبتسم ابتهاجاً او يبكي اكتئاباً

لكنه تحاشى قساوة القلب وتظاهر بشدة الاسف فتناول منديلاً وغشى به عينيه ووقف حيناً يفكر في مأتم الباكين ثم دنا من غادره وقال لها هلا ناتي بطبيب لكي يفحص جثة موتها لا عن ان الباعث على موتها لم يكن سوى الغم والكدر من تلك الحادثة الاخيرة

فعلام تأتي بالطبيب وتشهر الخبر

— فما رأيك اذن

— رأيي ان تنقلها على الفور الى الصاغة الكبرى وتقيم جنازتها هذا النهار وتدفنها عند المساء وتدفن معها خبر عشقها لجرجس لان هذا الخبر يلحق بك وصمة العار

فوقف الامير راغب حيناً وهو يفتكر في هذه المسألة الى ان استصوب رأي غادرة فامر الخدم بنقل « المتوفاة » الى الصاغة الكبرى

وكان ناج في ذلك الوقت قد انتهز الفرصة وانسل الى القصر والتقى باحد الخدم فرشاه واستعلمه مكان جرجس فاعلمه به بالاشارة فخرج ناج من القصر لان النزول منه الى سجن جرجس الموصد كان مستحيلاً فعمد في الخنادق الى المدخل الذي ولج منه بادىء الامر فاستصحب حبيباً الذي قعد هنالك ينتظره واخذا يوغلان في الاسراب والكهوف والدهاليز

اما غادرة الخبيثة فانها قبل التئام المجموع في سجن الاميرة سلمى تناولت جوزة السم فالفتها فارغة فقالت لاعجب ان ماتت سلمى هذا الموت الزؤام فان قطرة من هذا السم تقتل اسداً فكيف بها وقد شربت جميع ما في الجوزة ثم اخرجت من جيبها جوزة اخرى مشتملة على منعش حقيقي وقطرت بعض قطرات في الجوزة الاولى واعادتها دون ان يراها احد ولما اجتمعت حاشية القصر تظاهرت بخور القوى من شدة الحزن على الفقيدة وقالت للوصيفة اني شاعرة بوهن في قواي فاقطري لي قطرة من الجوزة المنعشة التي اعطيتكها الاميرة سلمى المرحومة فاذعنت الوصيفة وصبت لها قطرة منها في قدح ماء وناولتها اياه فكرعته امام الجميع

ولما امر راغب خدمهُ بنقل الجثة الى الصاغة الكبرى ذهب وغادرة الى غرفتها فقال لها لقد خطر لي خاطر وهو انهُ يجدر بك مغادرة القصر بضعة ايام تحاشياً لما عساه ان يهيج لك من الاضطراب وتفادياً من القيل والقال

فاجابت غادرة وقد ارتأيت ذلك انا ايضاً ونويت الرحيل قبل قدوم الاميرة ليلى حفيدة المرحومة وابنة سلمى اذ لا غرو انك استدعيتها

— نعم ساستدعيها على الفور برسالة برقية

— ولكن يجدر بك ان تبدي اثناء الجنازة ما قدرت عليه من امارات الغم والكدر كي لا

تدع سبيلاً للفيل والقتال ولا تهتم بي اذا طال غيابي

ثم افترقا وجلست غادرة في غرفتها حيناً وهي تجهد الفكر حتى برقت اسرتها فقامت واستدعت عامراً فجاء هذا وقال

— بم تأمر سيدتي

— اذهب بي الى سجن جرجس

فاحدق بها عامر اندهالاً ولم يجب فاستأنفت غادرة الامر واستعجلته فلم يسع عامراً الا الرضوخ فقال اذا كان لا بد لك من النزول فالحقيني اذهب بك الى حيث شئت ولكن يا للعجب ما عساك ان تفعلي الان في سجن جرجس المظلم العميق

— سوف يبدو لك مرامي فهيا بنا

وسار الاثنان وحمل عامر اضبارة المفاتيح بيد والمصباح باخرى واخذ ينزل درجات القصر حتى باب السجون ففتح بابها وقال لرفيقته حذار فهنا مزلقة الاقدام وقد زادت الطين بلة تلك الديم الهتانة التي هطلت منذ بضعة ايام

وما برحا نازلين حتى بلغا سجناً حديدي الباب فقال عامر لسيدته هذا سجن جرجس فهل افتح لك بابه

— ولم تزال اليه اذن

ففتح عامر الباب ودخل امامها وبيده المصباح فلما صارت الى جوف السجن تناولت المصباح من يده وقالت له

— اخرج واغلق الباب من خارج وانتظرني ريثما انتهي

فلم يبسط عامر لهذا الامر بل انقبض وكشر عن انيابه وقال

— وهل تطيل سيدتي المقام ههنا

— ولم هذا الفضول اعالمة انا متى انتهي من الحديث والحديث ذو شؤون

فزاد كدر عامر وخرج وهو يدمدم ويتذمر ويقذف بالشتائم وقعد على الباب مقعياً

اما جرجس فكان في سجنه خلافاً لما عسى القارئ ان يظن اي انه لم يضطرب ولم يقلق لما طبعت عليه نفسه من الشجاعة بل ظل هادئاً ساكناً يرى الموت امامه والمشنقة تنصب عينيه

ولا يكترث لامر البتة فلما سمع صريف المفتاح في باب سجنه قال في نفسه لا غرو انهم الجلادون قدموا ليعدموني الحياة ولكن لا باس فما في الموت عار على الفتى ولكنه لما رأى غادرة عجب وتغير رايه فقال في نفسه لا بد ان يكون وراء الاكمة ما وراءها فدنت منه غادرة ووضعت المصباح على الارض واحدقت بجرجس فرحب هذا بها وقال ما الذي شرفني بزيارتك

ـ اتيت لافاوضك في بعض الامور

ـ لم اكن لك بانتظار

ـ ومن كنت تنتظر اذن

ـ كنت انتظر الجلادين الذين امروا بشنقي

ـ نعم سوف تشنق بعد بعض ساعات

فاجاب جرجس باشارة معنوية اعتبر ما تؤكد بنه واقعاً لا محالة ولو كان خارجاً حدود المعقول فاي ذنب اتيت حتى يحكم عليَّ بالاعدام

ـ انت اعلم

ـ لو علمتهُ لما سألتك

فاحدقت غادرة بجرجس حيناً ثم قالت أَلم تعشق الاميرة سلمى

ـ عجباً كيف تسنى للآمر بقتلي مثل هذا الافتراء والاختلاق

فلم تعجب غادرة من قول جرجس لانها ادركت بفهمها الثاقب من اول وهلة ان باطن المسألة ليس كظاهرها فقالت لجرجس

ـ اذا اردت الحياة فذلك منوط بارادتك

ـ يالعجب وكيف لا اريد الخلاص

ـ واذا شئت فكك لك قيدك هذا المفتاح (واومأت الى المفتاح بيدها)

ـ هذا غاية تمناي فكي لي عافاك الله هذا القيد ودعيني اخرج من هذا السجن المظلم وهذا القصر المشؤوم

ـ انت مستعجل جداً

فتبسم جرجس وقال لو كنت في مكاني لشعرت بثقل هذه القيود

فتبسمت غادرة وقالت انيسلك مرادك ولكن

ـــ مالك استدركت الكلام

ـــ استدركته الشرط اشترطهُ على تخليصك ولكن يجب عليك ان تجيبني جواباً صريحاً

فانتبه جرجس وقال في نفسه حذار فقالت

ـــ ما انيت تصنع في القصر

فارتبك جرجس لهذا السوال وفكر في كيف يتخلص منه بلا كذب فرأى ان يتبع طرق الخاتلة المداعبة فقال

ـــ لم آتِ للغرض الذي ظننته

ـــ لم اظن لك غرضاً ولكني اريد ان اعلم لاي غرض انيت اذا لم تكن عاشق الاميرة سلمى

فاتضح لجرجس معنى كلام غادرة وقال

ـــ لم آتِ القصرَ ايتها السيدة لغرض ما لكن لما اتاح لي القدر ان انقذ الاميرة من الموت لمبين جنب القصر آملاً بان يجازيني زوجها الامير راغب فجازاني وجاملني وعاملني بما اضحيت له من الشاكرين ولكن نكد الطالع حدا الاميرة سلمى الى الاجهار بحبها لي عرفاناً للجميل وادعاء ان لها ولداً يشبهني في العمر فهل هذا صحيح

وكانت غادرة عالمة مما اطلعها عليه راغب بقصة سلمى وزواجها الاول فاجابت نعم كان لها ولد من زوجها الاول ولكنهُ قضى عند الولادة

فسر جرجس واجاب لقد اتضح لديك صدق مقالي فما ذنبي الا اني انبسطت الى ما شملتني به الاميرة سلمى من عواطف الحنان الوالدي افيستوجب هذا الذنب الحكم الصارم الذي حكم به علي ولا سيما ان البون الواضح بين عمري وعمر الاميرة سلمى ينفي كل ريبة

فكادت غادرة تثق بصدق مقال جرجس واجابت هذا كل ذنبك

ـــ هذا ذنبي برمته واني موقن بان الامير راغباً لو استنطق الاميرة سلمى لما اجابته بغير ذلك

فبش وجه غادرة وقالت لم يصدق الامير راغب ما اجابته به امرأته وهو مصر على الوثوق بالجريمة وقد حاولت صرف ظنون السوء عنك فلم ينجع كلامي

ـــ عجباً وهل دافعتِ عن حقوقي

ـ وما في ذلك من العجب

ـ لم اعجب ولكني انشرحت صدراً وزدت وثوقاً بالنجاة وقد وعدتني بها فانجزي الوعد عاجلاً المولى اذ قد اصبح الصباح وحان وقت الحكم

قال جرجس هذا رمد يديه لغادرة كيما تحل له عقال الامر فقالت اذا خليت لك سبيلك فما انت صانع

ـ اغادر هذا القصر بلمح البصر وانأى الى مطرح قاص

ـ وبعد ذلك

ـ وبعد ذلك لا اقدر ان اطلعك على ما سوف اصنع الا بعد اطلاق سبيلي

ـ ولماذا

فتظاهر جرجس بالخجل عمداً وقال لاني لا ادري اذا كان ما اقوله لك يصادف قبولاً ولا يظهر لك مظهر الوقاحة

فادركت غادرة المغزى واجابت قل ولا تبال

فتيقن لدى جرجس ما استشفه بادىء الامر من ان قدوم غادرة الى سجنه لم يكن الا لتعلم اذا كان يحبها ولتسطلق قيده وتملك زمام قلبه بصنيعها اليه فناجى قلبهُ فشعر بنفور شديد من غادرة المحتالة لكنه تجلد وعزم على وعدها بالحب توصلاً لغايته لولا ان سمع صوت جرس ناع اوقفهُ عن الكلام فعلم انه جرس كنيسة القصر فقال لغادرة اسامعة انت هذا الجرس الناعي

ـ لا تكترث اليه

فانقبض صدر جرجس وقلق خاطره وقال

ـ من ينعي هذا الجرس

ـ قلت لك ان لا تكترث اليه فما لي اراك مضطرب البال

فضاق جرجس ذرعاً وزاد اضطراباً وظل حيناً والوساوس تنتابه فسمع صوتاً حزيناً يؤذن من اعلى قبة الكنيسة صلوا عن نفس المرحومة الاميرة سليمى قرينة الامير راغب ....

فلم يتمالك جرجس عند سماع الصوت الناعي من الصياح بالويل والثبور حتى كادت

الزفرات تخنقهُ لانه تأكد موت والدته وعلم ان غادرة كانت السبب في قتلها ثم صعد دم الغضب الى راسهِ فانتصب وعيناه تتقدان كالجمر الملتظي وزفع على غادرة يديه وهما مثقلتان بالقيود وصاح تباً لك ايتها الحية الرقطاء وامطرتك السماء رزايا ونوائب ياقاتلة امي يالعينة يارجيمة . .

فبهتت غادرة وقالت في نفسها وقلبها مخمس في بحر من الحزن الشديد هي امهُ لا محالة ويلاه . . . .

ثم تحولت عنه وغادرته وقصدت باب السجن على مهل وصاحت عامر عامر افتح الباب وبينما كانت هذه الامور تجري في سجن جرجس اسمع ما جرى خارجاً

قلنا ان عامراً لم ينبسط لما امرته بهسيدته من الخروج والانتظار على باب السجن لكنهُ اطاع مكرها وخرج واغلق الباب وجلس على دكة وجسمهُ يقشعر من رطوبة الارض ولما طال عليه امد الانتظار وكان في ليلتهِ البارحة لم ينم الا غراراً استرسل الى النوم وخاض لجةَ فحلم ان غادرة قد تزوجت بالامير راغب وانه رقي الى رتبة المستشار خلفاً لجرجس الذي شنق وان ثروته اخذت بالتكاثر والتعاظم حتى اصبح من كبار المتمولين فابتاع عقاراً فسيح الارجاء . . . .

ثم قلبت لهُ الاحلام ظهر المجن فرأى ناجياً وقد نشر من القبر بعد ان قتله فارس وحنا وقام وهجم عليه وقبض على عنقه ليخنقه فشعر عامر وهو نائم بوجع في عنقه ثم ازداد الوجع الى حد اصبح معه الحلم فعلا والوهم حقيقة فانتبه من رقاده مذعوراً وفرك عينيه من لوثة النعاس واذا بناج منتصباً امامه فبسمل ظناً منه بانه ما برح في وديان الاحلام لكنهُ لم يستفد شيئاً لم تيقن بالحقيقة وقال بصوت خافت خانف مخنوق رحماك يا ناج

— الان تسترحم يالعين انسيت المكيدة التي نصبتها لي فهاك ما يخمد نفسك ويرسلك الى حيث القت رحلها ام قشعم

وفيما يقول ناج ذلك ود عامر لو يصيح ويستنجد لكن الفرصة خانته فلم يشعر الا بذراعين شديدتي الاسر التفتا على عنقه وعصرتاه عصرة ذهقت بها روحه فالتوى عنقه ووقع على الارض جثة لا حراك بها

فقال حبيب دهوره الله في دركات الجحيم

وقد علم القارىء ان ناجيًا بحث عن سجن جرجس وولج اليهِ مع حبيب من مولج السور حيث ادتهم خاتمة المطاف الى المكان المراد فرأيا على بابهِ عامرًا ففعلا به ما فعلا وكنا على البلب بصغيان الى حديث غادرة وجرجس

فلما تيقنت غادرة ان جرجس ابن الاميرة سلمى حقيقة عادت على اعقابها وهي تقول في نفسها لا بد ان يقتل في هذه الساعة وصاحت بعامر ليفتح لها الباب

فاجاب ناج من خارج وقد طبق لهجتهُ على لهجة عامر امرك مطاع يا سيدتي وادخل المفتاح في القفل وفتح فبادرت غادرة للخروج فدفعها دفعة عنيفة الى الوراء وقال لها بصوت جاف رويدك فبيننا حساب

فتولى غادرة الهلع وصاحت بصوت اجش الويل لي أناجيًا ارى ام جيًا

فقهقه ناج واجاب لا يغررك الغرور فانا ناج بعينه نشر من القبر بعد ان قتله من ارسلته في قتله وقدم على جناح النعامة ليكافىء صنيعك ويشكر جميلك

فصاحت غادرة يا لعامر اغثني

فضحك ناج واجاب لا اظن ان في امكان عامر اجابتك فقد ارسلناه يخطر خطرة بين سكان القبور واذا صحت انت الحقناك به على الفور

اما جرجس فلما رأى صديقه ناجيًا ارتمى عليه وجعل يقبله ويقول لا غرو انك ملك ارسلهُ الرحمن لانقاذي فقد بلغ السيل الزبى وصرت الى حالة لم يبق لي معها جلد ولا اصطبار

— حيَّ هلا النجاة

— وهذه القيود التي في يدي

— اين مفتاحها

— في يد هذه الغادرة

فنظر ناج الى غادرة نظرة الآمر وقال فكي هذه القيود

فانتصبت هذه واجابت بلهجة العزم الثابت لا افكها او اقتل

— اضطر اذن الى اغتصاب المفتاح

فرمت غادرة به من نافذة السجن الى الخارج قائلة خذه

فاندهش ناج من هـذه الوقاحة وقصد الباب كي ياتي بالمفتاح فاغتنمت غادرة الفرصة وهجمت على الباب وهي تبغي الهرب وتصيح باللرجال اغيثوني لكن حبيباً الذي لم تره من وراء الباب قبض على عنقها وقال لناج اذا صاحت هذه اللعينة اهلكتنا فما العمل بها فصاح جرجس اقتلها اقتلها وارح الارض من فسادها فان حياتها كلها عيث وشر فعصر حبيب على عنقها عصرة ودقة ففاضت روحها فطرحها فوق جثة عامر وقال اليك ابنتك ايها الشيطان الرجيم وكان ناج قد ذهب باسرع من لمح البصر واتى بمفتاح القيود وفك اسر جرجس وخرج الثلاثة هاربين فقال جرجس وعيناه مغرورقتان بالدموع أسامع انت صوت الجرس الناعي انه يفتت كبدي لانه ينعي الي اعز الناس على قلبي

فاجاب ناج لا تخشَ باساً فان الله احياناً يصنع من العجائب ما تحتار به عقول البشر

فلم يفهم جرجس مغزى مـا قال رفيقـه فاستفهم منـهُ فاجابهُ ناج اني اخشى الان عيون الرقباء ولكن متى خرجنا من هـذه الدماميس اطلعتك على كنه الخبر

فاقام جرجس من هذا الخبر على جمر الصبر وصار يسرع هو ورفيقاه ما امكنهم حتى صاروا تحت القبة الزرقاء فقال ناج ان الاميرة سلمى التي يظنها النـاس ميتة انما هي حية غارقة في سبات عميق

فاجاب جرجس وهو في غاية الاندهاش والجذل عجباً امي حية وافرحتاه ولكن كيف امكن هذا الامر كلا ثم كلاً انما انت مخادعي بامل كاذب

ـ قلت لك ان امك حية ولست بحمـدالله ممن عرفوا بالكـذب وان لم تصدقني فاسأل حبيباً

فقال هـذا ان ما ينطق به ناج هو الحق الصراح الذي لا يشوبه ريب

وجعل يقص على جرجس ما جرى من اول القصة الى آخرها ثم تداول الثلاثة في كيف ينبهوا سلمى من البنج ومضوا

عدنا الى قصر المنتزه وما جرى فيه: قصد الامير راغب بعد ذهاب غادرة ان يعجل بالدفن ما امكن حتى يستولي باقرب حين على عقارات امرأته فغشيت صاعقة القصر الكبرى بنسيج الحداد ووضعت الاميرة سلمى على نعش مرتفع فيهـا وابى الاهل بالفاجعة على لسان البرق وأخـذ

باقامة الجنازة . فوقف الامير راغب جانباً وهو يتغامُ ويغشي وجهه بمنديل اسود حتى تنطلي حيلته على الحضور

وكان فيمن حضر الجنازة ثلاثة رهبان قدتدثروا المسوح وسجدوا على درجات نعش المتوفاة منكسي الرؤوس مختفي الوجوه كانهم مسجدون غارقون في لجج من الخشوع والابتهال واستدرار الرحمة على الفقيدة

وكان الجمع المتألب في الجنازة كئيب المشهد يعدد مناقب الاميرة سلمى ويقول رحمة الله على مغيثة الفقراء ومجيرة اليتامى والايامى رحمة الله على من كانت للبر انشط نصيرة وفي الخير اول ساعية

وان القوم لعلى هاته الحال اذ سمع من الخارج صوت بوق ووقع حوافر فاندهش الامير راغب وقال في نفسه عجبا ما عسى ان يكون قدجرى والتفت الى باب القصر فاذا ضابط دخل ودنا منه وقال سيدي قدم الامير سالم في حاشية عديدة وموكب جرار

فقطب راغب حاجبيه وقال ما عساه يقصد بمجيئه ولكن لا باس دعوه يدخل وقوموا بما يليق بمقامه من الاستقبال الرسمي العسكري

فاذعن الضابط وخرج فدخل بعد هنيهة الامير سالم الوالي العام تتبعهُ حاشيته فتقدم الامير راغب واستقبله على الباب وهو يقول اهلاً وسهلاً بك ايها المشير الخطير وان كنت قدشرفتني في يوم حزن واسى

فاجاب الامير سالم نعم يسوئني ان زورتي لداركم صادفت حزناً بها ولكن بحياتك انبئني لمن هذه الحفلة الحدادية

ــ انعي لك بغاية الاسف زوجي الاميرة سلمى التي توفيت غلس اليوم

فاندهش الامير سالم واكتأب وقال عجباً زوجتك توفيت وكيف ذلك

ــ دهمتني هذه الرزيئة فجأة وقد توفيت بداء السل الذي تأصل فيها من عهد بعيد

فقال الامير سالم في نفسه تباً للظروف قدسبق السيف العذل وتأخرت عن تلبية طلب تلك المسكينة وذهب تعبي سدى ثم دنا من النعش وترع قبعته وركع على درجته فصلى واستمطر للفقيدة سجال الرضوان ومغفرة العزيز الرحمن وفيما هو يصلي دخلت الاميرة ليلى تصحبها

ابنة عم الفقيدة فلما رأت هذا المشهد انفطر قلبها واستفاضت بالبكاء ثم رأت الامير سالماً فتأدبت وتماسكت فانتصب هذا وقد اتم صلاته وقال اريد ان ارى الاميرة ليلى فتقدمت هذه من بين الجموع ووقفت بين يديه حذاء النعش

فقال الامير سالم اعالمة انت بما حدا الاميرة المتوفاة الى الاستنجاد بي

فاضطرب الامير راغب وقال في نفسه يا للعجب العجاب ولما استنجدت امرأتي بالامير سالم يا ترى فما عتم ان وقف على الحقيقة اذ اجابت ليلى : واويلتاه ضاع تعبك سدى في سبيل هذه المسكينة التي قضت شهيدة ولكنها تتخذك باسماني ملجأً لولدها ومجناً تحميه نائبات المحن

فصاح الامير راغب وهو في الاوج الاعلى من الدهشة والحد الاقصى من الانذهال : نقول لولدها وهل لامرأتي ولد .

فاستأنفت ليلى بصوت هادىء نعم لولدها ووحيدها ابن الامير انيس رحمة الله عليه

فلما سمع الحضور ما سمعوا اكبروا الامر واندهلوا لانهم لم يسمعوا قط ان للاميرة سلمى ولداً ما

اما الامير راغب فانهُ اصيب بجرح اليم فصاح من كبدٍ حرى وقلب ملتظ بنار الغضب هذا كذب محض وافك وبهتان ان الولد الذي ولد للاميرة سلمى من الامير انيس لم يعش قط اكثر من بضع ساعات فعلامَ الافتراء والاختلاق والامر واضح بيّن ملأ الخافقين ذكره واصبح اجلى من شمس الضحى وهل ارتاب احد في صحة ما اقول كلا ثم كلا والاميرة سلمى نفسها ما برحت معتقدة هذا الاعتقاد منذ عشرين سنة حتى آخر عمرها

فاجابت ليلى نعم ظلت في هذا الاعتقاد زمناً طويلاً ولم تطلع على الحقيقة الا منذ يومين ومدت يدها فاخرجت من جيبها الصك المختوم الذي استودعتها اياه الاميرة سلمى قبل سفرها وسلمتهُ للامير سالم وقالت تفضل سيدي بقراءة هذا الصك المكتوب بخط الاميرة نفسها حيث تعترف بابنها

فاثر هذا الامر في نفوس السامعين تاثيراً شديداً وضجوا ضجيج قوم يشهدون تمثيل مأساة وينتظرون بذاهب الصبر حل المشكلة

وقرأ الأمير سالم الصك فتعجب ونظر الى الامير راغب نظرة المستفهم فقال هذا مخاطباً ليلى

هذا الصك لا يكفي فكم رأينا من الامهات اللاتي يغترون بالغرور ولا ريب ان احد الدجالين خدع الاميرة بكلامه واشرب عقلها بهذا الفكر فاعتقدته وادلة عليه فهات الحجج ان كنت من الصادقين

ـ سآتيك بها

فأنقض راغب راسه وقال اذا اتيت بها عرضناها على الحكومة وجرى الجدال بشأنها ورأينا أيًا منا الصادق وايًا الكاذب افتظنين ان الحكومة تنخدع لترهات باطلة كما انخدعت امرأة مختلة الشعور مصابة بالسوداء والجنة

فغضبت ليلى وصاحت انت تعلم حق العلم انها لم تكن مختلة الشعور فكذبت بما نطقت ولا غرو انك هيأت لها جميع اسباب الجنون ولم يكن عليك حق اذا لم تجن فطاب سالم جرجس

فخار الامير راغب وقال في نفسه ان استدعاء جرجس الان مما يقضي علي فالاولى ان اختلق فرية امنع بها ظهوره فقال سيدي بودي لو يمكنني الامر الذي طلبتهُ ولكن سوء الطالع قضى بعكس ذلك

ـ وكيف الامر

ـ ان هذا الشاب الذي جاملته واسديت اليه عوارف الصنيع كفر بنعمتي واتى زلة كبرى مست شرفي فاضطررت الى مقاصته وزجه في السجن ثم تواترت الامطار الغزيرة في ليلة من الليالي ففاضت المياه وطفت على السجون فاغرقتهُ وقتلته

فلما سمعت ليلى هذا الحديث همت لتناقضه وتكذبه فلم تستطع للامر الغريب الذي استوقف حواسها واستلفت انظار الجميع وذلك ان احد الرهبان الذين ما برحوا راكعين على نعش المتوفاة قام من مسجده وترع المسح والقلنسوة ويمم راغبًا وصاح بصوت جهوري أإفكًا يا كاذب وانا في قيد الحياه فاحدقت ليلى بالرجل الذي تكلم فاذا هو جرجس بعينه فدهشت دهشة الفرح

اما الامير راغب فجمد واحدق بسجينه جرجس وهو لا يصدق عينه وطال امد السكوت في الحشد المتألب فوقفوا شاخصي البصر واقعي الطائر

فقال جرجس على رؤوس الملا اشكو الان من جورك واعتسافك فانك لم تبرح منذ عشرين سنة تعذب والدتي بما راق في عينيك من انواع العذاب وصنوف الاهانة حتى اصيبت من

جرائك بداء دفين قضى عليها ولئن قضت فلا آخذن بثارها ولاجعلنك عبرة للناظرين فاصبر اصبر قليلاً

فتأكد لدى الامير راغب انه اذا لم يات سبل جرجس بدر سيل صادع كان لا محالة في عداد الهالكين الخاسرين فرفع راسهُ وانتصب كصدر الرمح وشمخ بانفه وصاح بصوت اشبه زئير الاسد كذبت ياثيم يا افاق فلست ممن يكترث لوعيدك ونباحك فان البون بيننا بعيداً

وقد نبح الكلب السحاب ودونه مهامه تعشى نظرة المتأمل

كفاك وقاحة يا ابن الانذال وكفاك اخلالاً بحرمة من رقدت على هذا النعش وانتقلت الى دار البقاء

فاجاب جرجس وقد افعم غيظاً صه يا لئيم تدعوني ابن الانذال وانت آخر مذل واسقط وغد ويلك عذبت والدتي هذه المرأة الصالحة عشرين سنة واتخذت من دونها ضرة لئيمة فلبست ثوب الخزي والعار وألبست امي ثوب الضنى والشقاء وقد ضربت كشحاً عما سلبتها من المال وما كدت لها مع شريكتك الاثيمة الغادرة اسماً ومسمى من الكايد التي آلت بها الى ميتة الشهداء أفهذا من افعال الشرفاء او من افعال الانذال احكموا يا ذوي الالباب وانصفوا بيننا

فضج الحضور ضجة استحسان لحديث جرجس وكان خبر هذه الحادثة قد طار على جناح الالسنة فانتشر في جميع قرية المنتزه فتقاطر اهلوها باقل من لمح البصر وتالفوا جموعاً حتى غص بهم قصر المنتزه فضلاً عن الصاعة الكبرى

فلما سمع الامير راغب هذا الكلام بحضرة رعيته خجل واغتاظ فاجاب جرجس بكلام حاد البوادر وختمهُ بقوله كفاك استحي وارعو ولاتختلق اكاذيب باطلة ومفتريات مرذولة ولو كانت الان هذه المتوفاة المرحومة سامعة ما تقول كذبتك على رؤوس الملا وبصقت في وجهك جزاء افترائك وبهتانك

فانتصب اذ ذاك الراهب الثاني الذي لم يفتأ راكعاً على النعش وبسط ذراعيه مخاطباً الاميرة سلمى فقال أسمعت ايتها الاميرة مايقول زوجك الكاذب هيا انهضي من لجة الموت وامحي الباطل الزهوق فصوب الجموع انظارهم الى ذلك الراهب وهم على غاية الاندهال

ولا غرو ان القارىء اللبيب قد علم ان هذا الراهب لم يكن سوى تاج وتريده علماً بانه منذ جاء القصر انحنى على صدر الاميرة سلمى وهي في النعش وتظاهر بانه يباركها ويصلي عليها وعالجها بتريق

ناج فاستنشقته واصحت لكنه اوعز اليها ان لاتبدي حراكاً حتى يشير عليها بذلك ففعلت وظلت مستلقية كانها ميتة فلما قال لها ناج ما قال احدق به الامير راغب وهو غضبان وقال ما تفعل يا مجنون أتتمادي من لاحياة لها فلم يكترث له ناج بل استمر محدقاً بسلمى

ففتحت (سلمى) عينيها وجلست رويداً رويداً واجالت في الجموع نظرها فرجموا بالسكات وجمدوا كأن على راسهم الطير ووقفت فارتجف الناس وارتعدت فرائصهم من شدة الهلع فامسك « الراهب » ناج ذراعها فنزلت درجات النعش وهي اشبه بشبح نفض عنه غبار الموت واتجهت الى الامير راغب وهي باسطة اذرعها فتأخر هذا الى الوراء وعيناه شاخصتان وقلبه مفعم هلعاً فدنت من جرجس فطوقته بذراعيها وهي تقول ولدي ولدي وحشاشة كبدي فعانقها جرجس وهو يقول بلهجة الفرح الشديد وا اماه وافرحتاه فهاجت عاطفة الحنان في الحضور حتى استدرت مدامعهم

اما راغب فلما راى هذا المشهد وتيقن ان جرجس قد نجا من بين يديه وان سلمى عاشت بعد الموت وان آماله قد حبطت ومساعيه ذهبت ادراج الرياح ومطامعه تفرقت ايدي سبا عظم عليه الخطب واصيب فجأة بداء دماغي اخل شعوره فاجال عينيه البارزتين من محجريها لحظة ثم اطبقهما فجأة فانتصب امام عينيه شبح امرأته وتراءى له انها لا تزال هاجمة عليه وذراعاها بسوطتان ولسانها يستمطر عليه اللعنات ويستمد النقمات فطاش لبه وجن عقله واصبح في ضيق شديد فلم يرَ فرجاً الا بالانتحار فشق الجموع وهجم هجمة واحدة فصار الى نافذة الصومعة الكبرى ففتحها وقفز الى حافتها وصاح بصوت اليأس اني لا بد هالك فليكن قصاصي بيدي ورمى بنفسه الى الهوة المنبسطة تحت النافذة فغاب فيها وراسه اسفل فضج الجميع ضجة عظمى ووقف ناج على درجات النعش خطيباً فقال لقد اقتص المجرم بيده فكان هو الجاني وهو المنتقم واليكم الان يا قوم قصة هذه الامرة المنكودة « واشار الى سلمى » وهذا الفقيد الموجود واشار الى جرجس » واندفع كالسيل المتدفق فأرى الناس بحراً زاخراً فوق اعواد منبر وخطيباً صقعاً في لباس جندي وسرد عليهم القصة برمتها فسباهم بذلاقة لسانه وشدة عارضته واختتم بقوله

— اجل هذه هي الرواية التي سيخطها اليراع في بطون الرقاع وتخلد ذكرها التواريخ فترويها امس وترتوي من منهلها العذب جيلاً بعد جيل ولا غرو فقد خزي فيها البطل فلبس ثوب العار

والشنار وجزي الصدق فارتدى حلة النصر والفخار فلا برح الشهم الصادق منصورا والوغد المنافق مبكوتاً مقهوراً ورحم الله امرءاً قال آمينا

فصدّى الجمهور تصدية دوت لها ارجاء القصر وامنوا جميعاً ولسان حالهم ينشد

ابى الحق الا ان يكون مظفراً ابى البطل الا ان يكون معفراً

﴿ الفصل الثالث ﴾

﴿ او الخاتمة ﴾

فلما نطق ناج بما فاق قساً وازرى بسحبان وائل فخاب الالباب ولم يدع مجالاً لقائل عجمه الامير سالم بنظرة وقال له عهدتك يا ناج جندياً في الجيش الذي توليتُ قيادته منذ عشر سنين فما رقي بك اعواد المنابر وميادين الخطابة وتمثيل الروايات .

فاجاب ناج وهو يتبسم هي صروف الزمن وطوارىء المحن طوحت بي فعلمتني ما لم اكن اعلم وعركتني وعركتها ولبست لكل حالة لبوسها اما بعيمها واما بوسها حتى صار لي في كل عرس قرص وفي جو كل حادثة شمس

انا ابن جلا وطلاع الثنايا متى اضع « القلنسوة » اعرفوني
وارائي اذا ما عنّ خطب كبيض الهند تلمع في الدجون
ولي في كل حادثة فعالٌ ترصع بالغرائب والفنون
ولي عزم كصدر الرمح يغدو فيطعن مهجة الذل الخؤون
ولي حيل اذا اشتبكت صروف تنجي الميت من ايدي المنون
وابلغ تارة بالجد سؤلي وطوراً بالدعابة والمجون

فابتسط الامير سالم لناج وارتاح لما اتت به قريحته وجادت به بديهتهُ وقال زه زه ألم تكفك فنون الحرب والخطابة والتمثيل حتى شننت الغارة على قرض الشعر

— جمعت كما قيل من كل فن اطيبه حتى اصبح عقلي كالكشكول وبات راسي وعاء لمستطاب المعقول والمنقول

فقال الامير سالم جزاك الله خيراً يا ناج فقد اجرت الملهوف واصطنعت المعروف فاحرزت

الشكر واستحققت جزاء الاحسان وهو فرض بني الانسان وانت ايتها الاميرة سلمى انعمي بالاً وطيبي نفساً فلقد مضى زمن القهر وانبلج لك فجر الفوز والنصر فاستنبت اسباب سعدك وغردت طيور رغدك والتقيت بولدك بعد البعاد فألفك الهناء ووافاك الاسعاد ولا غرو فهذا جزاء من استمسك بعروة الصبر واحسن الجهاد فالزمي هذه الخطة اعزك الله يرعك الرحمن بعينه التي لا تنام ويصنك بركنه الذي لا يرام وانت ايها الامير جرجس اشكر المولى القدير الذي يسر لك كل عسير فالتقيت بوالدتك واصبحت موجوداً بعد ان كنت نائياً عنها مفقوداً ولا عجب

فقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ... يظنان كل الظن ان لا تلاقيا

وقد عزمت على مكافأتك جزاء ما عانيت انت ووالدتك من دواعي النكد فعينتك حاكماً على قرية الشير بدلاً من الامير راغب فاجعل العدل عمادك والانصاف مرادك واتق من بيده الربط والحل واليه مصير الامور من بعد ومن قبل . وجانب اللظم فعاقبتهُ وخيمة واحذر البغي فنتيجته ذميمة واعتبر بمن كان لعقاب الغدر عبرة زاجرة . ولا تلهُ عن ذكر من عينه على الانام ساهرة واخشه سراً واعلاناً فهو السند الصمد واليه رجعانا وانتم ايها القوم اطيعوا من نصبتهُ عليكم اميراً واتخذوه مجيراً ونصيراً فقد فوضت اليه مقاليد الرئاسة وسلمتهُ ازمة السياسة ليجري فيكم مجرى الانصاف المبين والله خير المنصفين . اما انت ياناج ففي نيتي ان اوليك على بعض القرى فما قولك

— سيدي نعمك افعمت صدري واوقرت ظهري ولكن لو سمحت لي بالاقامة قرب الامير جرجس رصيفي ورفيقي لكان شكري لك اعم

— لم يغرب عن ذهني ما انت عليهِ مع الامير جرجس من لحمة الوداد ولذلك عرضت عليك الامر الاول واستطلعتك طلع رايك فيه وحيث ان الامر على هذا المنوال فانا انيلك بغيتك وآمل ان يعينك الامير جرجس وكيلاً عنه مفوضاً في اموره

فاجاب جرجس هذا ما عقدت النية عليه

فاستأنف الامير سالم ولست لارضى لك بهذا المنصب فقط بل اقلدك منصباً اخر عسكرياً واعينك رئيساً فخرياً للجيش الاول المقيم في ولايتي

فصفق الجمهور لناج استحساناً ثم تقدمت الاميرة سلمى وقالت تخاطب الامير سالم شكرنا

الك ايها الامـير الخطير شكر يعجز عن وصفه اللسان والبنان ويتسع في استيعابه الخاطر والجنان فقد حللت بدارنا فحل معك الانس ونزلت علينا فانعشت الروح واحييت النفس واصبحنا في نعيم مقيم بعد ان كنا في عذاب اليم ولم يبق في قلبي الا حاجة واحدة تترع بها كاس الافراح فينجلي بها عن القلوب رين الاتراح

ـ وما حاجتك ايدك الله

ـ ان ولدي جرجس وحفيدتي ليـلى قد تحابا من اول نظرة واقاما في السراء والضراء على عهد الوداد وقد وعدت انا حفيـدتي ليلى بان ازفها الى حبيبها ليتم لهما ولهُ هلال الصفو وتستتب لهما اسبـاب الفرح واللهو فان اذنت اقمنا الان حفلة الزفاف وشرفتنا برئاستها وشاركتنا في افراحنا واحرزت اطيب الثناء

ـ هذا من احب الامور لدي واشهـاها الي فجمله فألذ الفرح عاجله

وبادر ناج وجميع حاشيـة القصر وترعرع سواد الاسى وبسطوا في القصر الوان الفرح الزاهية واستدعوا ارباب الفنون المطربة واعـدوا اطيب الالوان واشهاها ومدوا الموائد العامرة وزينوها بانواع الازهار والرياحين واقاموا حفـلة اصبح معها القصر يرقص طرباً وشرع المطربون بتوقيع الالحان ودام الغناء والقصف الى مساء ذلك النهار ثم اقيمت حفلة الزفاف فجليت الاميرة ليلى بالحلة المدبجة يصحبها الامير جرجس بثغر بسام وجبين وضاح وجميع اهالي المنتزه يترغون طرباً ويمرحون جذلاً ويدعون لاميرهم الجديد ولعروسه باطول العمر واكلاءه واصفى العيش واهنـاءه والامـيرة سلمى في حال من الفرح يكل عن وصفها اليراع وتضيق عن استيعابها الرقاع وعند تمام حفلة الزفاف قبلت والدها وحفيدتها وصافحها الجميع وعاد القوم الى الانس فاستوثقت نغمات الاوتار واديرت كؤوس الراح فقبض ناج على كاسه ووقف وانشد

راحت الاتراح عنـا وهزار الانس غـنى
وطيور الرغد صاحت وحمـام الروض حنا
ودواعي الصفو زاقت فاشتفى قلب المغنى
وبدور السعد وافت تنهل الافراح معنـا
فاكرعوا راحاً شمولاً كأثـير الجو معنى

واشربوا الكاس دهاقا بنوال المتمنى
واسمعوا انغام عود في سماء القصف رنا
وانشقوا ارياح عود محرق في النار مضنى
في زغاف كفر الدهـ ـر به عما تجنى
وارتعوا في ظل مولى فضله في الارض اسنى
ماشدا في الروض شاد واعتلى البلبل غصنا

فصفق الجمهور طرباً لهذه الابيات المرقصة واستمر اللهو حتى الهزيع الثاني من الليل ثم انصرف الناس وهم يعجبون من غريب ما سمعوا ووعوا

« تمت »